الجزء الخامس

«كأنما تلقينا مملكتنا منك أنت! وكأنما بيدك أنت المملكة والإمبراطورية لا بيد الرب.. لقد وضعت يدك عليَّ أنا الذى توجت على العرش، على الرغم من عدم جدارتى بأن أكون بين المتوجين»..

– هنرى الرابع إلى جريجورى السابع

«إن الجميع ليعرفون أن الملوك والأمراء ينحدرون من نسل رجال لا يعرفون الرب»..

– جريجورى السابع

عصر الإصلاح الجريجورى

أواخر القرن الحادى عشر ومطلع القرن الثانى عشر

الفصل الحادى عشر

على مشارف العصور الوسطى العالية

١ - حضارة العصور الوسطى العالية فى المنظور التاريخى:

لقد حظيت الفترة التى تمتد على مدى قرنين ونصف قرن فى التاريخ الأوربى، من منتصف القرن الحادى عشر حتى بداية القرن الرابع عشر، بدراسة أكثف من الدراسة التى حظيت بها أية فترة أخرى فى العصور الوسطى. وقد جرت عادة الكتب الدراسية التى تتناول التاريخ الوسيط على اعتبار الفترة السابقة، الأكثر طولاً، بمثابة فترة تمهيدية للسنوات المائتين والخمسين التى كونت العصور الوسطى العالية. وتميل المعالجة التاريخية (الهستوجرافية) لحضارة العصور الوسطى إلى اعتبار فترة العصور الوسطى العالية فترة النضج والإبداع فى ثقافة العصور الوسطى، على حين تعتبر الفترة السابقة مجرد فترة واعدة ولكنها غير ناضجة. أما الفترة التى تلت سنة ١٣٠٠ فهى مرحلة إضمحلال وذبول وتحلل. والحقيقة أن العصور الوسطى العالية High Middle Ages تعتبر هى العصور الوسطى «الحقيقية»؛ إذ أنها هى الفترة التى تكشف عن تلك الخصائص والأخلاقيات والمثل التى تنطبق بحق على مصطلح ومفهوم كلمة «وسيط».

والأصل فى أن الفترة ما بين سنة ١٠٥٠ وسنة ١٣٢٥ قد استرعت انتباه العلماء والأدباء أن الشواهد الباقية من حضارتها ما تزال واقعًا ملموسًا فى غرب أوربا، مثل الكاتدرائيات التى ما تزال، حتى اليوم، تمثل ثقافة العصور الوسطى. لقد بدأ الكُتّاب الرومانسيون فى مطلع القرن التاسع عشر هذا النمط من تبجيل ما خلفته العصور الوسطى من آثار، متخذين بذلك موقفًا مناقضًا تمامًا لموقف الإنسانيين الإيطاليين وكُتّاب حركة التنوير فى القرن الثامن عشر وهم الذين كانوا يرون فى فن البناء «القوطى» فنًا بعج بمظاهر الهمجية والبربرية التى تستفز فيهم مشاعر الاحتقار. واكتشف الأدباء الرومانسيون وأسلافهم الثقافيون، الذين أدانوا مظاهر الثورة الصناعية والحضارة الميكانيكية فيما بعد، فيما خلفته العصور الوسطى من آثار فنية،

عالمًا مثاليًا يحفل بالجمال والإخلاص والصوفية. فبالمقارنة إلى مغزل القطن، أو أية منشأة جديدة، تبدو بنايات كاتدرئيات نوتردام، وشارتر، وسالزبورى، وكولونى، وغيرها من البنايات الكنسية الباقية من القرنين الثانى عشر والثالث عشر، انعكاسًا حقيقيًا لحضارة أكثر وداعة، ومثالية، وإنسانية.

لقد جاء اكتشاف ما فى أدب العصور الوسطى وموسيقاها من جاذبية فى أعقاب اكتشاف قيمة الآثار المعمارية الكبري المتخلفة عن العصر القوطى. كم كانت المشاعر العامة نبيلة ومخلصة فى ذلك العصر الذى أفرز أبطال المؤلفات الأدبية من طراز ملحمة الملك آرثر، وكم كانت جياشة ومنظمة روح التدين فى تلك الحضارة التى تمثلت أروع إنجازاتها الموسيقية فى الترانيم الجريجورية! كان هناك كثيرون من ذوى العقول الحساسة فى القرن التاسع عشر، وعرف القرن العشرون منهم عددًا أقل، وقد تمرد هؤلاء وأولئك على المجتمع الصناعى وأداروا له ظهورهم ناجين بأنفسهم من الطمع والفساد الذى استشرى فى الدول الحديثة ليجدوا لأنفسهم الملجأ والعزاء فى الماضى؛ أى فى العصور الوسطى. مثل هذه المواقف تتجسد فى كتاب هنرى آدامز Henry Adams الذى يحمل عنوان Mont St. Michel and Charters وهو كتاب يشي بأن ثقافة فرنسا فى القرن الثانى عشر كانت محكومة بالشخصية الرمزية للعذراء. كما أن كتاب تيلور H.O.Taylor عن العقل فى العصور الوسطى Medieval mind تعبير باكر عن موقف مشابه تجاه العصور الوسطى. وعلى الرغم من أن بعض الأساتذة المتخصصين فى تاريخ العصور الوسطى ما يزالون يوصون بهذا الكتاب حتى الآن، فإنه لا يقدم لنا سوى القليل من المعلومات عن التاريخ الثقافى للعصور الوسطى.

وهناك فئات أخرى اجتذبتها حضارة العصور الوسطى العالية بقوة. فقد كان علماء الكنيسة الكاثوليكية عمومًا أشد اهتمامًا بالقرنين الثانى والثالث عشر منهم بالعصور الوسطى الباكرة، ولا غرو فإنهم رأوا فيها ازدهارًا للمسيحية الوسيطة فضلًا عن تحقيق الزعامة الكنسية فى المجتمع الغربى. ذلك أن الدور الهام الذى لعبته الفلسفة التوماسية والقانون الكنسى فى الحياة الثقافية والإدارية فى الكنيسة الكاثوليكية الحديثة، جعل من الضرورى أن يقوم العلماء الكاثوليك بدراسة مكثفة حول أصول هذه النظم الفلسفية والقانونية، وكيفية نموها فى الفترة ما بين ١٠٥٠ وسنة ١٣٠٠. لقد تأسس فهمنا للحياة الثقافية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، بدرجة كبيرة، على بحوث العلماء الكنسيين الذين عكفوا على البحث

والدراسة بحمية وإخلاص قلما يوجد له نظير بين المؤرخين العلمانيين المتخصصين فى العصور الوسطى. وهناك من الكتاب الكاثوليك من تخطى حدود الدراسة العلمية بحيث أعلنوا أن القرن الثالث عشر هو «أعظم القرون»، وأن هذا القرن أسعد فترات التاريخ لما اتسم به من الوحدة، والتوافق، والتقدم والرضا.

كذلك وجد المؤرخون الوطنيون فى العصور الوسطى العالية حقلاً خصبًا للدراسة. إذ أن المؤرخين الألمان ركزوا اهتمامهم بالفترة الواقعة ما بين سنة ١٠٥٠ وسنة ١٣٠٠ بسبب الإنجازات المجيدة التى حققتها الامبراطورية الألمانية فى العصور الوسطى، وأيضًا بسبب العناصر التى حسمت مجرى التاريخ الألمانى فى الفترة التالية. أمَّا بالنسبة لمؤرخى فرنسا، فكانت العصور الوسطى العالية مرحلة هامة للغاية، لأن هذه هى القرون التى شهدت تكوين فرنسا. ففى سنة ١٠٥٠ لم تكن فرنسا أكثر من مجرد تعبير جغرافى، ومن غمار الفوضى التى سادت إبان السنوات المائتين والخمسين التالية خرجت فرنسا الدولة، وبرزت اللغة والثقافة الفرنسية. فكيف حدث هذا التحول بين الإمارات الاقطاعية غرب الراين؟ إن المؤرخين الفرنسيين ما يزالون عاكفين على البحث عن إجابة لهذا السؤال. أما مؤرخو إنجلترا، فإنهم يعطون للقرنين الثانى عشر والثالث عشر أهمية توازى أهميتها بالنسبة لمؤرخى فرنسا. فقد افترض هؤلاء أن السنوات المائتين والخمسين التى أعقبت معركة هاستنجز Hastings فى سنة ١٠٦٦[١] تمثل الفترة التشكيلية للتقاليد السياسية الانجليزية المتمايزة فى مجال القانون العام والبرلمان، وهو الأمر الذى أكده المؤرخون فى القرن التاسع عشر، ولأن المؤرخين الإنجليز تأثروا بالاتجاه المستمد من الداروينية الاجتماعية Social Darwinism[٢] وهو الاتجاه الذى يرجع

(١) تنسب هذه المعركة الهامة فى تاريخ إنجلترا إلى مدينة هاستنجز فى جنوب شرق إنجلترا على ساحل القنال الإنجليزى. وفى هذه المعركة استطاع النورمان بقيادة وليم الفاتح أن يهزموا الانجلو - سكسون وأن يقتلوا ملكهم هارولد الثانى ملك وسكس Harold II of Wessex وترتب على هذه المعركة نجاح الغزو النورمانى لانجلترا وما أعقبه من نتائج - انظر ما يلى عن تأثيرات الغزو والنورمانى. (المترجم)

(٢) رائد هذا الاتجاه فى التفسير الاجتماعى هو هربرت سبنسر H. Spencer (١٨٣٠ - ١٩٠٣)، الذى يعتبر ثانى الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع. ويعد المبدأ التطورى هو الأساس الحقيقى لمذهب سبنسر. وقد نشر أول مقالاته فى هذا الصدد فى مجلة The Non Conformist سنة ١٨٤٢ عبر فيها عن وجهة النظر التى تذهب إلى أن تكييف الإنسان لوظائفه الاجتماعية يتطور بشكل أسرع حينما لا يحدث تدخل مصطنع فى حياته. وحين نشر تشالز داروين فى سنة ١٨٥٩م=

كل شيء إلى أصوله الأولى، فإنهم أحسوا منذ القرن التاسع عشر، وحتى الآن، بأن عليهم أن يقوموا بتحليل دقيق للغاية لما مرت به بلادهم من تطورات سياسية وقانونية خلال العصور الوسطى العالية.

أما المتخصصون الأمريكيون فى تاريخ العصور الوسطى، فقد مالوا إلى دراسة القرنين الثانى عشر والثالث عشر وأغفلوا العصور الوسطى الباكرة، التى كانت دراستها فى الجامعات الأمريكية وقفًا على المهاجرين الألمان فى غالب الأحوال. وبالإضافة إلى النزعة الهروبية الرومانسية التى يمثلها كل من هنرى آدامز، وتيلور، ظهر حافز جديد فى عشرينيات القرن العشرين دفع بالعلماء الأمريكيين إلى تركيز الدراسة فى فترة القرنين الثانى عشر والثالث عشر. أما الواقعيون أصحاب الرؤوس الصلبة من أمثال تشارلز هاسكينز وتلاميذه، والكثيرون ممن ساروا على دربه، فقد خلبت مؤسسات العصور الوسطى وغموها ألبابهم. لقد تميزت العصور الوسطى الباكرة بالمجتمع الزراعى والتفكك السياسى. وما أن تطلع شمس سنة ١٣٠٠ حتى يستطيع المؤرخون أن يجدوا البرهان الساطع على ظهور دولة بيروقراطية ذات طابع حديث، فضلًا عن أشكال الرأسمالية التى تعدت طور النشأة. وبذلك وجد المتخصصون الأمريكيون فى تاريخ العصور الوسطى فى الفترة ما بين سنة ١٠٥٠ إلى سنة ١٣٠٠ بدايات العالم الحديث، وعكفوا على كشف المسارات الأولى للحكومة البيروقراطية والمجتمع الرأسمالى عن طريق تحليل المؤسسات والنظم الحكومية، والقانونية، والإدارية، والمالية. وأبطال العصور الوسطى الذين احتلوا صفحات كتبهم، لم يعودوا هم القديسين، وشعراء التربادور، والفنانين الرومانسيين، بل هم كبار الإداريين، والمُشرِّعين، وجباة الضرائب، وقد يقال إن المدرسة الأمريكية، فى تناولها للعصور الوسطى، إنما تعكس التجربة والحاجات الاجتماعية، مثل أية مدرسة أخرى فى مجال دراسة التاريخ فى أوربا. ذلك أن هذه المدرسة جاءت انعكاسًا لاهتمامات الفرد الأمريكى المتوسط التعليم بكافة أشكال النشاط السياسى، وربما تكون دراسة أوربا فى العصور الوسطى العالية قد اجتذبتهم لأن هذه الفترة شهدت نفس التطور السريع من الفوضى السياسية إلى الحكومة

= كتابه عن أصل الأنواع، استوعب سبنسر المفاهيم الجديدة التى نشرها داروين لقربها من أفكاره بل إنه أشار إلى أنه سبق داروين فى التوصل لها.

عن هذا العالم الاجتماعى وآرائه انظر: نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع - طبيعتها وتطورها (ترجمة الدكتور محمد الجوهرى وآخرين، دار المعارف ١٩٧٤). ص ٦٣ - ٧٨. (المترجم).

المركزية الذى يميز تاريخ الولايات المتحدة. فلا غرو أن نجد «هاسكنز»، وواحدًا من ألمع تلاميذه هو ستراير J.R. Strayer قد كرسا بعض مؤلفاتهما الأولى فى التاريخ الأمريكى لدراسة الفترة الاستعمارية.

والقيم التى اكتشفتها هذه المجموعات المختلفة من المؤرخين فى العصور الوسطى العالية قيم لا يمكن إنكارها؛ على الرغم من أنه يجب تقييم كل منهم تقييمًا كليًا. فلا يمكن لأحد أن ينكر الجمال، والتدين، والنظام، والإبداع، والإنجازات السياسية التى تمت فى غضون القرنين الثانى عشر والثالث عشر؛ ولكن السؤال هو: إلى أى مدى استمرت هذه الصفات فى الوجود، وما مدى أهميتها فى البنيان الكلى لحضارة العصور الوسطى؟ فضلاً عن أنه ينبغى وضع الصفات المحببة والإنجازات التى تمت إبان العصور الوسطى العالية فى مواجهة جوانب القصور والإخفاق. ولا يجب أن يغيب عن البال أن حضارة العصور الوسطى قد تحللت وانهارت فى النهاية. إذ أن الكنيسة لم تتمكن من الاحتفاظ بزعامتها، بل أن الدول الوطنية تعثرت، ولو مؤقتًا، وإلى جانب الجمال والنظام وجدت الفوضى والعنف. وإذا ما قرأنا ما كتبه الناس فى القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر لتأكدنا أن أكثرهم تدينًا لم يكونوا قديسين؛ وإنما كانوا بشرًا حقيقين غالبًا ما أضنتهم هموم المشكلات المحيرة، فخلف واجهة كنيسة نوتردام، أو تشارتر، لا يكمن قدر من السلام والرضى أكثر من ذلك الذى يكمن خلف قصر فرساى، أو قصر الأمم فى جنيف، أو مبنى الأمم المتحدة - بل أنه يمكن أن يكون أقل. إن العصور الوسطى العالية تقدم صورة معقدة للمجتمع، وهى صورة حقيقية ذات تفاصيل كاملة، وليست مجرد صورة سطحية للإنجازات البارزة. لقد تم تقييم مغزى هذا الإبداع وأهميته بالنسبة لمجتمع العصور الوسطى، كما جسدت دلالاته على المدى الطويل، بيد أن هذا تم فى الغالب بفضل أولئك الذين لم تلهمهم فلسفة العصور الوسطى وفنونها. ومن الصعب، بطبيعة الحال، أن نعمم مثل هذه الأحكام على حضارة العصور الوسطى العالية، التى فُسِّرت فى أغلب الأحوال على ضوء بعض القيم ذات المقاييس الأحادية. بيد أن على المؤرخ أن يتساءل عن السبب فى أن حضارة ما استطاعت أن تحقق هذا القدر الكبير من الإنجازات، ثم عجزت عن حل بعض المشكلات الجوهرية التى كانت واضحة منذ البداية، وأن يتساءل أيضًا عن السبب فى تفكك هذه الحضارة وتحللها بمثل هذه السرعة.

وبينما تكشف الفترة بين منتصف القرن الحادى عشر ومطلع القرن الرابع عشر

عن بعض الخصائص التى تجعل منها فترة واحدة متمايزة فى التاريخ الأوربى، يكشف الفحص الدقيق عن أن هذه السنوات المائتين والخمسين تنقسم إلى أقسام أربعة. أول هذه الأقسام هو عصر الإصلاح الجريجورى منذ حوالى سنة ١٠٥٠ حتى حوالى سنة ١١٣٠. وكان ذلك العصر شبيهًا بعصر الثورات العالمية فى التاريخ الحديث (ثورة البروتستانت، الثورة الفرنسية، والثورة الشيوعية) من عدة وجوه، كما أنه تميز بالكثير من الجدال والمناقشات التى دارت حول طبيعة المجتمع المسيحى. أما القسم الثانى من العصور الوسطى العالية فإنه يتميز بازدهار التعليم، والتدين، والسلطة من سنة ١١٣٠ حتى سنة ١٢٠٠. وعلى الرغم من أن هذا التقدم كانت قد بدأت ارهاصاته قبل سنة ١١٣٠، فإن أهميته احتجبت خلف المنازعات التى أثارها الإصلاح الجريجورى، ولم يحدث قبل نهاية السنوات السبعين، التى ميزها السكون النسبى عقب نهاية الثورة الجريجورية، أن تجلت واضحة تلك القوى الهائلة التى تمثلت فى الروح الابداعية والإنجازات التى تمت فى القرن الثانى عشر.

لقد تأثرت كل جوانب الحياة بهذا النمو الابداعى فى مجالات: الدين، والأدب، والفلسفة، والاقتصاد ونظم الحكم. بيد أن هذه القوى الابداعية جلبت معها مشكلات خطيرة للغاية، وبينما كانت شمس القرن الثانى عشر تميل نحو الغروب كان على الحضارة الأوربية أن تواجه المشكلة الأساسية حول إمكانية التوفيق بين نتائج التعليم، والتدين، والسلطة، أو احتمال أن تقضى النبضات المتصارعة فى هذه المجالات على وحدة الحضارة الوسيطة وتدمرها. ويتسم القسم الثالث من العصور الوسطى العالية، منذ حوالى سنة ١٢٠٠ إلى حوالى سنة ١٢٧٠ بالجهود الجهيدة، بل واليائسة، التى بُذلت لحل هذه المشلكة الأساسية، وإقامة توازن جديد فى مجتمع العصور الوسطى. لقد كانت هذه الفترة محكومة بالبرامج والأهداف التى حددها البابا إنوسنت الثالث، ومن الممكن أن نسمى الاستقرار النسبى والهدوء الذى تميز به القرن الثالث عشر «سلام إنوسنت الثالث» دون أن نكون قد تجاوزنا حدود العدل. هذه الفترة تتميز أيضا ببعض من أعظم الانجازات فى الحياة الدينية فى العصور الوسطى، واللاهوت؛ وهى الإنجازات التى نربطها باسم كل من سان فرنسيس الأسيسى St. Francis of Assisi وسان توماس أكويناس Thomas Aquinas. أما القسم الأخير من العصور الوسطى العالية فيمتد على طول نصف القرن الذى أعقب وفاة لويس التاسع ملك فرنسا سنة ١٢٧٠. فقد حدث انهيار فى الزعامة، بدأ بطيئا فى أول الأمر، ثم لم يلبث أن صار سريعا للغاية، وفشل الوفاق ليبدأ عهد جديد من العنف. ولكن هذا العنف لم يعد نفس الشراسة الفردية التى

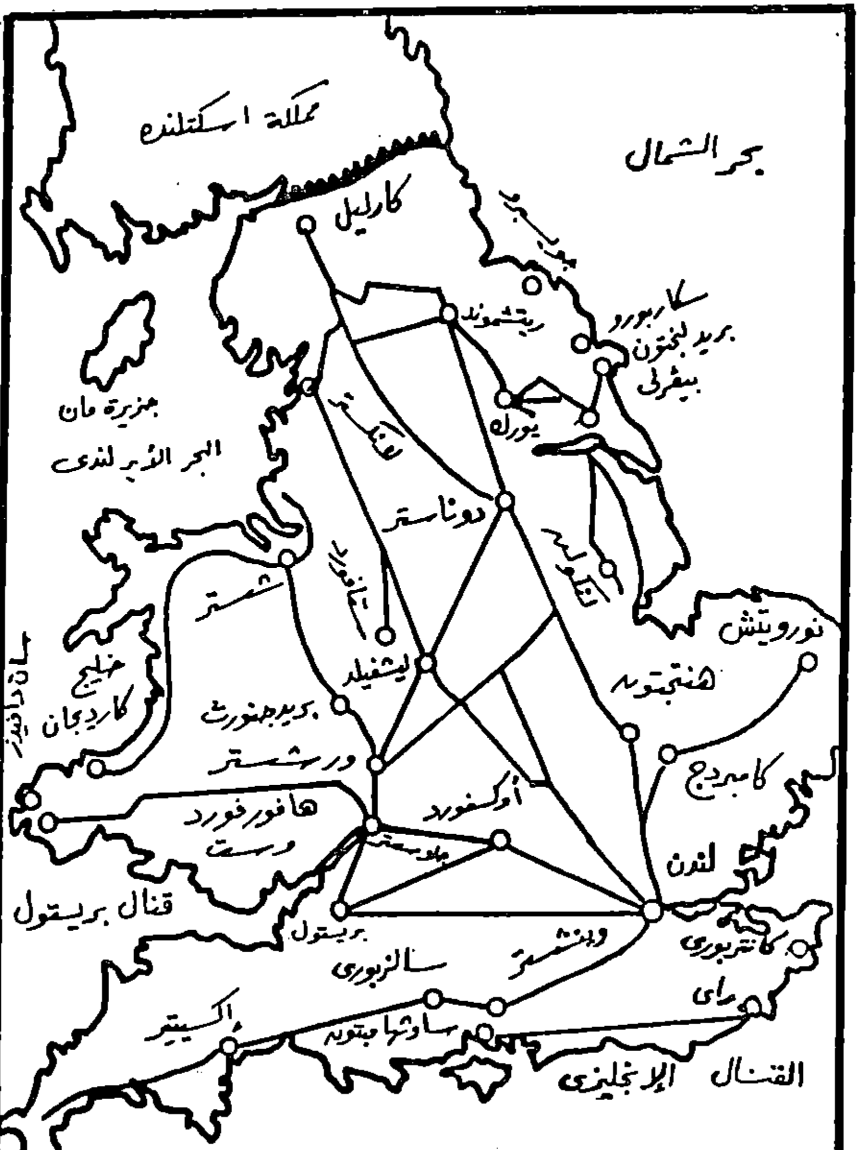

الطرق الرئيسية في انجلترا العصور الوسطى

(وفقاً لمعلومات وردت في خريطة ترجع إلى القرن الرابع عشر الميلادي)

عرفتها العصور الوسطى الباكرة، وإنما كان عنفا أكثر عقلانية، وتنظيما تقوم بـه دولة ضـد دولة، أو تقـوم به الـدولة ضـد الكنيسة. ومن ثم فـإنه يتعـين عـلى من يؤرخ للعصور الوسطى العالية أن يفسر أصـول الثورة الجـريجورية العالميـة ويؤكد عـلى نتائجها، كما ينبغى عليه أن يوضح ما تحمله إبداعات وإنجازات القرن الثانى عشـر من دلائل ومضامين، فضلا عن تجسيد النظام الجـديد الـذى شاده إنـوسنت الثالث، وتفسير الانهيار السريع الذى حاق بهذا النظام فى أخريات القرن الثالث عشر.

٢ – أوربا سنة ١٠٥٠:

كيف كانت أوربا تبدو سنة ١٠٥٠؟ ما هى الملامح والقسمات اللافتة للنـظر فى ذلك العصر؟ وما الذى كان يسترعى انتباه الرحالة الذى كان يجـوب أنحاء أوربـا فى تلك السنة؟ من الممكن أن يتاح لنا قدر من الرؤية الـداخلية فى إجـابات هـذه الأسئلة من خـلال مصاحبتنـا لراهب أنجلو – سكسـونى قام بـرحلة من ديـره فى يوركشاير البعيدة المقفرة إلى المدينة (روما) سنة ١٠٥٠.

ذات يوم، وبينما كان صاحبنا الراهب عاكفا على العمل فى حجرة النسخ بالدير، ينسخ المخطوطات، استدعاه رئيس الديـر ليخبره أنـه قد أختـير للقيام بـرحلة إلى روما لغرضين:

أولهما: أن يبلغ احترام رئيس الدير وتبجيله إلى البـابا ليـو التاسـع الذى كـان يقـوم بتغييرات شـاملة فى الادارة البابـوية، ليعيـد للبابـوية هيبتهـا التى كانت قـد تدهورت كثيرا طوال قرنين من الزمان.

وثانيهما: أن رئيس الدير أراد من الراهب الشاب أن يحصل على الـطلاق لابن عمه الذى كان من النبلاء، وكـان لابد من التـرخيص البابـوى بهذا الـطلاق. وفى ذلك الوقت كان يمكن الحصول على الطلاق على أساس وجـود قرابـة من الدرجـة السابعة بين الزوجين (فى القرن الثالث عشر اقتصـر على قـرابة الـدرجة الـرابعة)، ولأن كثيرين من نبلاء أوربا كانوا يتزوجون قريبات لهم داخل نطاق درجة القرابة هذه، فإن الحصول على الطلاق لم يكن صعبا بشرط موافقة البابا.

وانطلق صاحبنا الراهب الشاب على الطريق الرومانى القديم المتجه جنوبـا عبر حـدود مقاطعـة يوركشـاير المـوحشة، حيث كـانت معظم المستـوطنات الـدينية التى ازدهرت فى القرن الثامن قد باتت خرابا بسبب غزوات الفيكنـج. وحين وصـل إلى

المناطق البعيدة فى جنوب انجلترا، راعه حجم حركة البناء والتشييد التى كانت تجرى فى تلك الأنحاء. والواقع، أنه فى شتى أرجاء أوربا سنة ١٠٥٠، كانت الأصوات التى تطرق أذن المرء هى الأصوات الناتجة عن بلطة تقطع أخشاب الأشجار، أو منشار يعمل فى البنايات الجديدة. وفى أماكن قليلة، ولا سيما فى المدن الكاتدرائية الكبرى فى القارة، كانت الأبنية الحجرية قد بدأت تحل محل الأبنية الخشبية المعتادة، على الرغم من أن الصناع الأوربيين كانوا مايزالون يفتقرون إلى الكثير من الخبرة فى البناء بالأحجار. وفى سنة ١٠٥٠ كانت الغابات تغطى مناطق كثيرة من أوربا، كما كانت الغابات أكثر بكثير من الغابات الموجودة اليوم، على حين كان النمو السكانى يفرض ضغطا متزايدا على طلب الغذاء. وكان لابد من إزالة الغابات وتعمير الأراضى الجديدة. وعلى أية حال، فإن الأخشاب التى كانت تتوفر عن إزالة الغابات كانت مطلوبة جدا لبناء المساكن، والقلاع، والكنائس فى المناطق الريفية والحضرية على السواء.

وبعد رحلة دامت عدة أيام وصل راهب يوركشاير الشاب إلى كانتربورى، التى كانت أول كنيسة لاتينية فى انجلترا، والتى كان أسقفها بالتالى هو رأس الكنيسة الإنجليزية. وحين وصل صاحبنا الراهب إلى كاتدرائية كنيسة المسيح، أى كانتربورى، لم يدهش كثيرًا حين وجد جمعا كبيرًا من الناس هناك، بينهم الملك ادوارد المعترف Edward the Confessor. كان ادوارد، كما يستدل من اسمه، رجلا تقيا وقديسا إلى أبعد الحدود، على الرغم من أنه كان، مثل كل القديسين الجالسين على العروش، ضعيفا عاجزا. ووجد راهب يركشاير الملك ادوارد مشغولا بأحب الأعمال إلى قلبه؛ أى وضع ذخائر مقدسة جديدة فى كنيسة المسيح. وقد لاحظ الراهب نظرات الاحتقار والازدراء فى عيون النبلاء الانجليز وهم ينظرون إلى مليكهم العاجز عن القيام بوظيفة الملك كما يراها الجرمان، أى أن يكون قائدا حربيا. وحين واصل رحلته جنوبا لاحظ أيضا الفوضى المستشرية والحروب المستعرة بين النبلاء الانجليز، مما كان دليلا على أن المملكة كانت على شفا حفرة من التدهور والانحلال.

وعبر راهب يوركشاير القنال الانجليزى لينزل على ساحل نورماندى. وهناك وجد عالما يختلف عن انجلترا، خاصة من حيث التنظيم الحكومى والحيوية الثقافية. ذلك أن حاكم نورماندى لم يكن قديسا بأى حال، فهو الدوق وليم ابن الزنا Wiliam the Bastard، على الرغم من أنه أثبت أنه صديق عظيم للكنيسة،

كما كانت علاقته بالبلاط البابوى وطيدة للغاية. وكان وليم على النقيض من ادوارد المعترف، إذ كان يسيطر تمامًا على النبلاء فى دوقيته، واستغل المؤسسات الاقطاعية لتدعيم سلطته ولتوحيد أراضيه. وفى نورماندى تأثر راهب يوركشاير كثيرا بالبناء الذى يجرى على قدم وساق، ولا سيما بناء الكاتدرائيات والأديرة الكبرى. ولقد لفت انتباه الراهب أن كثيرين من زعماء الكنيسة فى نورماندى كانوا من أصول إيطالية أو من مناطق الراين؛ وفى أى من الحالين فإنهم وفدوا من مناطق خاضعة للإمبراطور الألمانى، إسميا على الأقل. وقد جندهم الدوق، كما فعل أسلافه من قبله لتحسين وتطوير الخصال الثقافية لرجال الكنيسة النورمانديين ولكى يساعدوه فى الأعمال الإدارية والقانونية. كان الراهب معتادًا على الكنائس الخشبية فى انجلترا لدرجة أنه لم يكن هناك أى مبنى حجرى فى وطنه، وإذا وجدت بها مبانى حجرية فإنها حقيرة صغيرة. وقد أدهشته كثيرا المحاولات التى كانت تجرى لإقامة المنشآت الكنسية العالية، والاهتمام الجديد بالخط الرأسى فى البناء. ولا شك فى أن هذا كان أمرًا جديدًا فى عمارة الكنائس فى شمال أوربا، ولم يكن له مثيل فى انجلترا، على الرغم من أن أنماطا معمارية مشابهة كانت قائمة فى شمال ايطاليا حيث وفد كثيرون من زعماء الكنيسة النورماندية.

وفى نورماندى تقابل الراهب الانجليزى مع قس كان عائدا من جنوب ايطاليا، حيث كان قد ذهب موفدا من قبل بارون نورمانى. وكان هذا الأخير قد انضم إلى حملة للنهب قبل عدة سنوات، وكان آنذاك مشغولا بغزو هذه البلاد الثرية. وسمع الراهب الأنجلو - سكسونى من القس النورمانى عن عالم غريب، أى مناطق البحر المتوسط النائية الغريبة، التى يسكنها المسلمون، الذين كان الغرب يخشاهم ويكرههم، والبيزنطيون الخطاة. وكان هذا العالم ينعم بحياة حضرية مريحة تفوق أحلام الشماليين وجشعهم. ففى سنة ١٠٥٠ كانت السيادة الإسلامية والبيزنطية على هذه البلاد الأسطورية تواجه التحدى من جانب الفرنجة الهمجيين للمرة الأولى. وكان معروفا كذلك أن أمراء أسبانيا المسيحيين كانوا قد بدأوا فى دفع أعدائهم المسلمين حتى فى أسبانيا، حيث كان حكم الصليب محصورا فى إمارات جبلية ضئيلة لفترة طويلة، على حين تمتع المسلمون بثروات ومباهج قرطبة وغيرها من المدن الذهبية فى أيبيريا[٣].

(٣) استخدم المؤلف عبارات قاسية فى وصف المسلمين للدلالة على هذا المعنى نفسه. وهنا ينبغى أن نشير إلى أن المسلمين فى الأندلس كانوا يتمتعون بثمار حضارة هم الذين=

ومن نورماندى عبر الراهب الانجليزى إلى أراضى الفلاندرن، حيث كانت هناك عدة أديرة كبيرة قام بزيارتها وفى أثناء وجوده فى الفلانـدرز أدرك لأول مرة وجـود نوع من الناس لم يعرفهم من قبل، قوم يعيشون فى مدن مسورة ويطلق عليهم اسم «البـروجـوازيـون Bourgeois». ولم يكن هؤلاء من الاكليـروس، أو من الأقنـان العاملين فى خدمة السادة الاقـطاعيين؛ وفى مـدن مثل غنت Ghent ويبـرس Yqres كانوا يؤلفون طائفة جديـدة فى مجتمع العصـور الوسـطى. كان الـراهب الانجليزى يعرف ثلاث طبقات اجتماعيـة لا غير - أولئـك الذين يحـاربون، والـذين يُصلوّن، والذين يعملون - ولكن هؤلاء البورجوازيين كـانوا يتكسبـون عيشهم من صناعـة المنسـوجات الصـوفية والإتجـار فيها. وكـان يأخـذون بعض هذه المنسـوجـات إلى معارض فى شمبانى Champagne حيث تباع وتصدر إلى إيطاليا وغيـرها من البـلاد البعيدة. وقد خرج العديد من البورجوازيين من خلفية اجتماعية غامضـة ومجهولـة؛ إذ أن بعضهم جاءوا من الشرائح الدنيا من طبقة الفرسان، وقيل إن البعض كانـوا أقنانا فى الأصل. ولم يكن البورجوازيون قوما يتميزون بالبشر والسرور؛ ذلـك أنهم كـانوا يفتقـرون إلى الأمن، وقد لفهم الخـوف بردائـه البغيض. إلا أنهم فى الـوقت نفسه كانـوا على قـدر كبير من المهـارة وقوة الشكيمـة. فقد كـانت بنيتهم النفسية والثقافية أكثر عقلانية من بنية طبقة النبلاء والفـرسان، بـل إنها كانت أشـد تعقيدا من بنيـة كثيرين من رجـال الكنيسة. كـانوا يبـدون جشعين غـير أمناء، ولكنهم فى الوقت نفسه كانوا أتقياء ومتدينين كأفراد وجماعـة بدرجـة حيرت الـراهب البسيط القادم من يوركشاير. ولم تكن لهؤلاء البورجوازيين، الذين يقفون خارج نطاق البناء الاجتماعى التقليدى، أيـة سلطة سياسيـة، كما أن وضعيتهم فى سـاحات القضـاء لم تكن قد تحددت بعد على شكل دقيق. أما الشىء الوحيد الذى كان بحـوزتهم. فهو ذلك القدر الكبير من المال الذى وظفوه فى بناء أسوار قوية حول مدنهم، وفى إقامة الكنائس البلدية، وبنـاء المساكن المريحة إلى حـد ما فى الشـوارع الضيقة المـزدحمة القذرة فى مدنهم، كما أنهم استخدموا هذا المال أيضا لشـراء امتيازات الحكم الـذاتى من كونت الفلاندرز.

= أرسوا دعائمها ولم يرثوها عن الفيزيقوط (القوط الغربيين) الذين كانوا عـلى حال من الجهـل والتخلف لم تمكنهم من الصمود أو حتى المساهمة فى حضارة شبه الجزيـرة على الـرغم من مسانـدة الكنيسة الكاثوليكية لهم. وفى هذا المقام فـاكتفى بما ذكـره كانتـور نفسه عن القـوط الغربيـين فى الفصل الرابع من كتابه. (المترجم)

أيقن الراهب الانجليزى أن الطريق ما يزال طويلا أمامه حتى ينهى رحلته بالوصول إلى روما، وأنه قد آن الأوان لكى يترك الأديرة المريحة، ومدن أقليم الفلاندرز العجيبة. وحتى إذا كان باستطاعته أن يتبع الطريق المباشر إلى روما من خلال وسط فرنسا - وهو الأمر الذى لم يكن ليقدر أن يفعله لأن مناطق الوسط لم تكن خاضعة لسيادة أحد، كما كانت تغص بالبارونات اللصوص - فإن الرحلة كانت ستستغرق شهرين. فاتجه من الفلاندرز إلى باريس بقصد أن يأخذ طريق الراين جنوبا مرورا بالمركز الكنسى فى ليون.

وكان ما أثر فيه آنذاك وهو يتابع رحلته هو ذلك العدد الكبير من السادة الاقطاعيين، والتجار، والكنسيين الذين قابلهم على الطريق. كان ثمانون بالمائة من الناس فى أوربا ما يزالون لا يتحركون بعيدا عن مسقط رأسهم طوال حياتهم لمسافة تزيد عن عشرين ميلا، ولكن الطبقات العليا فى أوربا كانت قد بدأت تتحرك. وكانت الرحلة والسفر أمرا محفوفا بالمخاطر؛ إذ كانت الطرق سيئة بدرجة لا تصدق، كما كان اللصوص وقطاع الطرق يملأون البقاع. ولكن فى رحاب هذه الحضارة التى كان إيقاع الحياة فيها يتصاعد، تحتم على الرجال، وعلى النساء، أحيانا، أن يسافروا إلى مسافات بعيدة. وقد سهل استخدام اللجام والحدوة للخيول، والذى عرفته أوربا قبل مائتى سنة، من عملية السفر إلى حد كبير.

كانت باريس مدينة غريبة إلى حد ما، إذ كانت تعكس الظروف الخاصة التى كانت الملكية الفرنسية تجتازها. فعلى مسافة عشرة أميال فقط من المدينة كان الريف محكوما بالقلاع التى يسكنها البارونات اللصوص، ويقال إن ملوك آل كابيه كانوا يخشون الخروج من أسوار مدينتهم. أما أكثر شيء مس شغاف قلب راهب يوركشاير فهو دير سان دونى St. Denis الملكى الكبير، والذى كان أكثر ارتباطا بعصائر ملوك آل كابيه من ارتباط نظيره دير ويستمنستر Westminister القائم عبر القنال الانجليزى بعصائر الملوك الانجلو - سكسون. ففى دير سان دونى كانت تحفظ التيجان والشعارات الملكية ورموز التاج الفرنسى. وهو ما يعنى أن الملكية الكابية كانت ذات خصال مقدسة. ولكن الاحتفال الفخم الذى كان يتم فيه المسح المقدس والتتويج لم يكن ذا تأثير على الأمراء الاقطاعيين فى فرنسا، على الرغم من أنه كان تأكيدا على التزام ملوك آل كابيه تجاه الكنيسة، لأن الأمراء كانوا مستقلين ولم يعترفوا بسيادة باريس إلا على نحو شكلى فارغ.

وقد طلب رئيس دير سان دونى من زائره الانجليزى أن يتوقف، وهو فى

الطريق ألى روما، فى دير كلونى الكبير قرب ليون. ذلك أن رئيس الدير نفسه كان فى الأصل من رهبان دير كلونى، مثل كثير من رجال الكنيسة فى نورماندى. والواقع أن الراهب الانجليزى كان قد سمع بالفعل روايات مدهشة عن كلونى، الذى كان أكبر أديرة ذلك الزمان، والذى قيض له أن يعبر عن وجهة نظر الكنيسة فى أواسط القرن الحادى عشر. ولم يخب ظن الراهب الانجليزى؛ إذ كان دير كلونى مطابقا لما كان مفروضا أن يكون عليه. وقد تأثر، مثل غيره من الزائرين، بعظمة البناء، وتعقد مراسم الخدمة الكنسية فيه، فضلا عن النظام والاخلاص اللذين اتسم بهما الرهبان الكلونيون. والحق أن أولئك الرهبان كانوا يعيشون حياة أكثر راحة ويأكلون أفضل بكثير مما كان الرهبان البندكتيون السذج فى يوركشاير ينعمون به. فلم يكن الرهبان الكلونيون يقومون بأية أعمال بدنية، كما أنهم لم يكرسوا وقتا كثيرا للتعليم والدراسة. لقد قنعوا بالعيش على ريع الضياع والأوقاف التى أغدقها عليهم حكام أوربا المعجبون بهم، من أمثال الأمبراطور الألمانى هنرى الثالث الذى كان يؤازر النظام الكلونى مؤازرة خاصة. ألم يكن الوقت قد حان بعد لأن تكون حياة الرهبان انعكاسا للزعامة الديرية فى المجتمع؟ ألم يكن الرهبان الكلونيون هم حقا أمراء الكنيسة؟ الواقع أن كثيرين من الرهبان الكلونيين كانوا من أصل ارستقراطى أو من أحفاد الأمراء، أفلم يكونوا بذلك جديرين بزعامة الكنيسة؟ لقد أجاب الكلونيون على هذه الأسئلة بالايجاب، بل أن الرهبان الذين كرسوا أنفسهم لحياة أكثر بساطة وخشونة تعين عليهم أن يسايروهم مدة طويلة. كان الكلونبون قانعين بالعالم كما هو؛ فقد كان واضحا أنه عالم يتسم بالكمال، لأنه عالم يمارس فيه المتدينون أمثالهم تأثيرا سياسيا قويا، كما كان الحكام الألمان والانجليز والفرنسيون يحققون ما يمليه عليهم ارتقاؤهم لعرش الملكية الثيوقراطية.

كان الصوت الذى غالبا ما طرق أذنى الراهب الانجليزى فى رحلته، بعد صوت فئوس الفلاحين فى الغابات، هو صوت الأجراس التى كانت تتجاوب أصداؤها من ذلك العدد المتزايد من الكنائس والأديرة. وفى كل مكان ذهب إليه الراهب الانجليزى شاهد كنائس جديدة تبنى فوق الأرض التى تملكها الكنيسة والتى أوقفها عليها كبار النبلاء. لقد كان التدين يبسط جناحيه على المجتمع؛ وكان من دواعى سروره أن يجد فى كل مكان رجال الكنيسة المخلصين، والنبلاء، والبورجوازيين، بل والفلاحين الذين يفهمون مذاهب العقيدة وينظرون إليها بجدية بالغة - تلك المذاهب التى كان أتباع سان بندكت قد حملوها إلى حدود أوربا منذ زمن طويل.

هذه المتع السعيدة التى عاشها راهب يوركشاير انقطعت بوصوله إلى مدينة

ميلانو بعد رحلة عبر ممرات جبال الألب. وكما كان الحال زمن سان أمبروز، كانت ميلانو تدين بالسيادة لأسقفها، بيد أن عناصر جديدة كانت قد طرأت على الحياة فى ذلك المركز الكنسى الكبير، وهى عناصر وجدها الراهب الانجليزى مثيرة للدهشة ومثيرة للاضطراب أيضًا. فقد كانت تعيش هناك طائفة كبيرة من البورجوازيين المعادين لحقوق الأسقف السياسية التقليدية، وإلى جانبها طبقة من البروليتاريا الصناعية التى تغص بالمرارة ضد جميع السلطات التنظيمية بحيث تحولت إلى طبقة ثورية من العامة بفعل المذاهب الألفية والمتعلقة بسفر الرؤيا. وهنا وجد الراهب الانجليزى نفس التدين الفردى الحضرى المكثف الذى وجده من قبل بين سكان المدن الفلمنكية. ولكن هذا التدين فى ميلانو تضخم إلى الحد الذى جعل منه مشكلة كبيرة تعين على الكنيسة مواجهتها. وكان البورجوازيون المتعلمون ينظرون بازدراء إلى كثيرين من رجال الكنيسة، الذين كانوا فاسدين وغير أهل للثقة فعلاً، لقد كان الجو الدينى فى المدينة هو جو الشوق الروحى الذى وصل إلى حافة التمرد والهرطقة، ولم يكن من السهل تحويله أو إرضاؤه.

كان الراهب الانجليزى مسرورا لأنه ليس مضطرا لرعاية البورجوازيين والبروليتاريا فى ميلانو؛ وقد كان من دواعى راحته أن يسمع أن بابوية ليو التاسع الاصلاحية تعجل بالاهتمام بمثل هذه المواقف المتفجرة. ولكنه حين وصل فى نهاية المطاف إلى روما وجال عبر بناياتها الخربة المهجورة، ومر بشوارعها القذرة المنفرة، ليصل إلى كنيسة القديس بطرس اكتشف أن ثمة أفكارا مريبة تدور بين الناس. فقد كان ليو التاسع ألمانيًا مثل الامبراطور هنرى الثالث، ولكنه كان يكرس نفسه لاصلاح البابوية تحت رعاية الامبراطورية، ولكن الكرادلة الشبان الذين أحضرهم إلى روما كانوا يرون الأمور بمنظور مختلف فيما يبدو. إذ أنهم لم يكتفوا بالحديث عن التدهور والفساد المتفشى بين رجال الكنيسة بلهجة تقطر بالمرارة؛ وإنما انتقدوا فى بعض الأحيان مدى صلاحية التناول الكلونى للحياة الدينية. وهناك ترددت نغمة جديدة تبعث على الانزعاج، ويبدو أنها قد جرت فى اتجاه مضاد لكل ماحاز إعجاب الراهب الانجليزى أثناء رحلته إلى الجنوب. فقد وجد فى كلام الكرادلة الشبان ومواقفهم من التهور والطيش ما يتشابه على نحو ما مع تهور البورجوازيين فى ميلانو والمدن الفلمنكية. وكان راهب يوركشاير الشاب سعيدا بانجاز مهمته على وجه السرعة وحصل لسيده على الطلاق. وهاجه الشوق لأن يبدأ رحلة العودة إلى وطنه - عبر أوربا التى لم يكن يعترف بحال الكمال فيها كل أولئك الذين كانت سعادتهم وغبطتهم تبدو أمرا عابرا.

الفصل الثانى عشر

الثورة الجريجورية العالمية

١ - طبيعة الاصلاح الجريجورى وأصوله:

تعتبر السنوات الثمانون التى تمتد منذ منتصف القرن الحادى عشر حتى نهاية العقد الثالث من القرن الثانى عشر من أكبر منعطفات التاريخ الأوربى. إذ كانت تلك فترة التغيرات ذات الأهمية الحيوية فى شتى جوانب الحياة والتى تحدث فى آن واحد معا وبسرعة كبيرة لا تجعل أيا من المعاصرين يستطيع التنبؤ بنتائجها البعيدة المدى. والمؤرخ أيضا لا يستطيع، على الرغم من أنه يتأمل الأحداث بعد وقوعها بفترة، وعلى الرغم من الجهد الشاق المضنى الذى يبذله، أن يحل الغموض الذى يكتنف كافة العلاقات السببية التى تسببت فى بداية هذه الطفرات فى الحياة السياسية، والاقتصادية، والدينية، والفكرية؛ ومن ثم فإنه من هذه الناحية فقط تتشابه هذه السنوات الثمانون مع الفترات الحرجة التى مر بها العالم الحديث: فى النصف الأول من القرن السادس عشر، وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، ثم فى النصف الأول من القرن العشرين. ففى هذه الفترات الفاصلة فى تاريخ الغرب انفجرت قوى التغيير التى عانت طويلا من الاحباط مثل الطوفان مخلفة وراءها حطام نظام قديم، وأساسا لنمط جديد متغير من الحياة الاجتماعية. وفى معظم الأحيان يظهر الانسان الغربى كمن يسير وهو نائم، إذ أنه يتقبل بطريقة سلبية البناء الاجتماعى الذى تم على مدى القرون الماضية. فهو يتابع مثالاً معينًا يكون بمثابة الإلهام للحركة الثقافية. ومع الجديد فى حياته يتحرك الانسان فى الغرب بعيون مفتوحة، ولكن وعيه باتجاه حركته ما يزال وعيا جزئيا.

كان العصر الذى شهد الاصلاح الجريجورى والنزاع حول التقليد العلمانى واحدا من تلك الفترات التاريخية التى تتميز بحركة تغير أساسية وسريعة فى الوقت نفسه. فقد كانت تلك هى فترة النمو التجارى الضخم، وفترة نمو المجتمعات

الحضرية، وفترة التعبير الأول عن نفوذ الطبقة البورجوازية الجديدة فى الميدان السياسى. وقد شهد ذلك العصر ميلاد أول ملكية ناجحة حقا فى العصور الوسطى فى انجلترا الأنجلو - سكسونية على أساس من المؤسسات الاقطاعية والوسائل والهيئة الادارية التى كونها الدوقات النورمان بنظرتهم الثاقبة ورؤيتهم المستقبلية. كان ذلك عصرا انتهت فيه عزلة حضارة غرب أوربا الجديدة عن عالم البحر المتوسط. وبدلا من هذه العزلة، التى كانت قائمة منذ القرن الثامن، توغلت شعوب غرب أوربا سياسيا واقتصاديا فى حوض البحر المتوسط بهدف النيل من المسلمين والبيزنطيين الذين طالت سيطرتهم على أراضى عالم البحر المتوسط وتحكموا تماما فى تجارة البحر المتوسط من الشمال. لقد كان ذلك عصرا يتسم بالحيوية الفكرية الفائقة التى شهدت أهم الاسهامات فى اللاهوت المسيحى اللاتينى منذ أوغسطين، كما شهد ذلك العصر كيف تحولت بعض المدارس الكاتدرائية فى فرنسا وبعض مدارس البلديات فى شمال إيطاليا إلى جامعة القرون التالية. لقد كان ذلك عصرا يتسم بالحيوية الدافقة فى الفكر التشريعى، ففيه تمت دراسة القانون الرومانى دراسة متأنية للمرة الأولى منذ عصر الغزوات الجرمانية فى القرن الخامس، كما شهد ذلك العصر خطوات واسعة فى سبيل جمع القانون الكنسى وترتيبه.

ولكن، مثلما هو الحال فى فترات التغير الأساسى فى التاريخ الحديث، ينبغى على المؤرخين أن يضعوا هذه الانجازات فى المرتبة الثانية من الأهمية بعد النضال الأيديولوجى. ذلك أن حصيلة النزاع الطويل المدى حول النظام السليم الذى يجب إقامته فى العالم تتمثل فى النموذج الحضارى العالمى الذى سيبرز من طيات هذا الصراع ليسود طوال القرون التالية. كانت الفترة بين سنة ١٠٥٠ وسنة ١١٣٠ محكومة بمحاولة لثورة عالمية تركت تأثيرها الفعال للغاية على كافة جوانب التغير الاجتماعى الأخرى. ويبدو، بالنظر إلى الماضى القريب، أنه كان من الضرورى للانقضاض الثورى أن يهز النظام الذى عرفته العصور الوسطى الباكرة من الأساس، وذلك حتى تتاح للقوى السياسية، والاقتصادية، والفكرية الجديدة أن تنال فرصتها فى التطور والتقدم فى مواجهة المؤسسات والأفكار القديمة.

يتميز تاريخ الغرب بأن مصيره قد تشكل بفضل أربع ثورات عالمية انهارت فى طياتها الاتجاهات القديمة وخرجت من غمارها أفكار ونظم جديدة. فالثورة العالمية ثورة واسعة النطاق، متغلغلة، وشاملة على الصعيد العالمى، وفيها تبرز أيديولوجية جديدة ترفض نتاج قرون عديدة من التقدم الذى ينتظمه النظام السائد وتنادى

بنظام جديد فى العالم. هذه الثورات العالمية التى حدثت فى التاريخ الحديث معروفة تماما: ثورة البروتستانت فى القرن السادس عشر، والثورة التحررية فى القرن الثامن عشر، والثورة الشيوعية فى القرن العشرين. ويعتبر النزاع حول التقليد العلمانى، والذى أوجده الإصلاح الجريجورى، أولى الثورات العالمية الكبرى فى التاريخ الغربى، كما أن مساره يتبع نفس النموذج الذى سارت عليه الثورات المعروفة فى التاريخ الحديث.

إذ أن كلا من الثورات العالمية بدأت بشكوى عادلة من الأخطاء الأخلاقية الكامنة فى النظام السياسى، أو الاجتماعى، أو الدينى السائد. وفى النزاع حول التقليد العلمانى كانت شكوى زعماء الثورة، الذين عرفوا باسم «المصلحين الاجتماعيين»، منصبة على سيطرة العلمانيين على الكنيسة وتورطها فى الالتزامات الاقطاعية. فقد أدى هذا النظام إلى حالات حادة من سوء الاستغلال، لا سيما فيما عرف باسم «السيمونية» (أى بيع الوظائف الدينية)، الذى تم تعريفه بشكل عام بأنه تدخل العلمانيين فى النظام الصحيح للوظائف الكنسية والمقدسة. وكان الجريجوريون على حق تماما فى ادانتهم للسيمونية باعتبارها هرطقة وخروجا على الدين.

ومن سمات جميع الثورات العالمية وخصائصها، على أية حال، أنه على الرغم من أن كلًا منها بدأت بشكوى من الفساد المتفشى فى النظام العالمى السائد، فإن الهدف النهائى الذى كان يحدده المنظرون والمفكرون الثوريون لم يكن هو اصلاح النظام السائد، وإنما القضاء عليه واستبداله بنظام جديد. وفيما يتعلق بالنزاع العلمانى، كان التحرر الكامل للكنيسة من سيطرة الدولة، وانكار أية صفات مقدسة للملكية، وسيادة البابوية على الحكام العلمانيين هى أسس النظام المثالى الجديد.

وكما فى جميع الثورات العالمية، كانت أيديولوجية الجريجوريين تستوجب معارضة قوية من جانب كل من أصحاب المصالح والمنظرين المخلصين المدافعين عن النظام القديم. وبعد عدة منازعات شرسة، وفيض من الكتابات الدعائية، كانت النتيجة حربا لا هوادة فيها. كما أن استقطاب المجتمع المتعلم بين الثوريين والمحافظين قد أدى إلى وجود مجموعات كبيرة من المعتدلين المحايدين وبينهم بعض أفضل مفكرى ذلك الزمان، ممن كان بمقدورهم ادراك جوانب الخطأ والصواب لدى كل من الجانبين.

وكما هو الحال فى كافة الثورات العالمية الأخرى، كان نجاح المفكرين المشتبكين فى النزاع العلمانى محدودا فى مجال خلق النظام الجديد. لقد نجحوا فى تدمير النظام القديم، ولكن العالم الجديد لم يكن هو المدينة الفاضلة التى كان الثوريون يحلمون بها. وإنما كان بناء النظام السياسى والدينى على أساس كل من العناصر القديمة والجديدة على حد سواء، كما كانت الفرصة متاحة أمام النقائص البشرية المتمثلة فى الطمع وحب السلطة. لقد كسبت الكنيسة تحررا واسع المدى من السيطرة العلمانية، كما كان هناك تحسن ملحوظ فى المستوى الأخلاقى والفكرى لرجال الدين. ولكن الكنيسة نفسها، منذ عصر النزاع العلمانى، صارت أكثر اهتماما بالشئون الدنيوية، وبذلك دخلت بابوية العصور الوسطى العالية فى منافسة مع الملوك والأباطرة على الثروة والسلطة وفازت فى هذه المنافسة. لقد صارت الكنيسة نفسها دولة تحكمها الادارة البابوية.

وكما هو الحال فى جميع الثورات العالمية الأخرى، كان المفكرون أنفسهم أثناء النزاع العلمانى متحدين على أشد أهداف الثورة الحاحا وأكثرها تحديدا. وعندما مضت الثورة فى طريقها انقسم الجريجوريون إلى جناح معتدل وجناح راديكالى متطرف، وعلى رأس كل من الجناحين عدد من الكرادلة البارزين. فقد كان على رأس الردايكاليين هومبرت Humbert وهليدبراند، على حين تزعم المعتدلين بطرس داميانى Peter Damiani. وكما هو الحال فى الثورات العالمية الحديثة، ظل الراديكاليون لفترة قصيرة يسيطرون على حركة الاصلاح الجريجورى، وهى فترة كانت كافية لتدمير النظام القديم. ولكن عندما أدرك المحافظون والمعتدلون فى النهاية أهداف الراديكاليين الحقيقية وشراستهم التى لا تعبأ بالنتائج، فقد الراديكاليون زعامتهم وباتوا غير قادرين على تحقيق مثلهم الخيالية.

وكما هو الحال فى الثورة العالمية الحديثة، خسر الراديكاليون زعامتهم، ولم يتولها المعتدلون من جماعتهم والذين كانوا قد أزاحوهم جانبا من قبل، وانما تولاها السياسيون، ورجال الدولة الواقعيون الذين أوقفوا مسيرة الثورة محاولين اعادة تركيب توليفة جديدة من شظايا النظام القديم وانجازات الثورة، أى توليفة تضمن التقدم. هذا الاتجاه واضح تماما فى البابا اربان الثانى Urban II فى العقد الأخير من القرن الحادى عشر، وقد صار هو الاتجاه السائد فى البابوية فى عشرينيات القرن الثانى عشر.

وكما هو الحال فى جميع الثورات العالمية، لم يصل النزاع حول التقليد العلمانى

قط إلى حـل نهائى وكامـل. ذلك أن الأفكـار الجديـدة التى تولـدت عند الأجيـال الجديدة أفرغت المسائـل القديمـة من مضمونها، وتحـول أبناء الأجيـال الجديـدة إلى اهتمامات أخرى ومشكلات جديدة. ومثلما لم يستطع فولتير وهيوم أن يفهـما السبب الذى جعل النـاس فى القرنـين السادس عشـر والسابـع عشر يحـاربون من أجـل مبادىء لاهوتية غامضـة معقدة فـإن رجال الكنيسـة المتعلمين فى ثـلاثينيات القـرن الثانى عشر لم يفهموا السبب الذى جعل البابـوات والملوك يتنازعـون على التقليـد العلمانى قبل عشرين أو ثلاثين سنة فقط.

وربما يمكن أن نعتبر، بحق، أن عصر النزاع العلمانى هو نقطة التحول فى تـاريخ حضارة العصور الوسطى. لقد كان هذا العصر هو انجاز العصور الوسطى الباكـرة، لأنه فى هذه العصور اعتنقت الشعوب الجرمانية الدين المسيحى، ومن ناحية أخرى، فإن نموذج النظام الدينى والسياسى الذى ساد فى العصور الوسطى العـالية قـد برز من خلال حوادث وأفكار النزاع حول التقليد العلمانى.

والرأى القديم، القائل بأن الحركة الكلونية كانت هى الالهام المبـاشر لـلاصلاح الجريجورى، لم يكن رأيا ساذجا فحسب، وانما كـان يناقض الحقيقـة تمامـا. لقد ثـار الجريجوريـون ضد تـوازن العصور الـوسطى، ومن ثم كـانت ثورتهم ضـد كثير من الأشيـاء التى كان ديـر كلونى والأديرة التـابعة لـه يمثلونها فى القرن الحـادى عشر. فما هى أذن أصول وأسباب حركة الاصلاح الجـريجورى التى كـانت سببا فى نقـطة التحول الحاسمة فى التاريخ الوسيط؟ أن من يحاول تفهم أسباب الثـورات العالميـة الحديثة ومراحلها الأولية لن تدهشه صعوبة تحديد أسباب الثورة العالميـة فى العصور الوسطى ورصـد مراحلهـا. ذلك أن كثيـرا من جوانب هـذه المشكلة لم تخضع بعـد للدراسة المكثفة. ولا سيما أن عددا محـددا من قادة كنيسـة القرن الحـادى عشر هم الـذين حظوا بـدراسة جـادة عن حياتهم. ولكن معلومـاتنا عن تلك الفتـرة تقدمت بالقدر الذى يكفى للكشف عن أصول الثورة فى خطوطها العريضة على الأقل.

لقد كانت حركة الاصلاح الجريجورية هى النتـاج الطبيعى، ولكنهـا لم تكن أبدا النتاج الحتمى، للتوازن الذى شهدته العصور الوسطى الباكرة. إذ أنه عندما توغلت الكنيسة فى أواخر القرن الحادى عشر وفى القرن الثانى عشر فى شئون العالم تدخلا مـطردا، لكى تفرض مثلهـا وقيمها عـلى المجتمع العلمـانى، بدأت تـواجه احتمـالا خطيرا بفقدان هويتها المتمايزة وبذلـك تخسر زعـامتها للمجتمـع الغربى. لأنـه بينما

كـان التدين ينمـو باطـراد فى شتى أنحاء الغـرب الأوربى، ظلت الصفات الخـاصـة لرجال الكنيسة أقل من المـطلوب. ولم يعد المـوقف المخلص من العقيدة والأسـرار الكنسية وتبجيل القـديسين وذخـائرهم كـافيا للتمييـز بين الـرجل العلمـانى ورجل الكنيسة. فمع منتصف القرن الحادى عشر بات واضحـا أن المتدينـين العلمانيـين قد وصلوا فى حـالات كثيرة إلى مستـوى من الاخلاص الـدينى يضارع مستـوى أكثر رجال الكنيسة وعيا. فقد لاحظ الكاردينال داميانى، الذى تعتبر كتاباته مؤشـرا على المواقف السائدة فى القرن الحادى عشر، أن كـل مسيحى مؤمن هو صـورة للكنيسة بأسرهـا «أن كل مؤمن يبـدو كنيسة مصغـرة». ويؤكد داميـانى أنه إذا رفـع الروح القدس بعض المؤمنين إلى مـرتبة السهـر على الهيئـة الكنسية، فـإنه ينبغى أن يقـوم وزراء الرب هؤلاء بكشف النقاب عن صفاتهم الشخصية المقدسة، وذلك أن يحيا كل منهم حياة دينية سامية. فضلا عن أن الرهبان الذين يحيـون حياة دينيـة كاملة يجب أن يتصرفوا باعتبارهم جيش المسيح.

لقـد أدى انتشار مشـاعر التـدين بين العلمـانيين إلى خلق مشكلة جـديدة أمـام الكنيسة، كما أن مذهب الكنيسة التقليدى عن سلطة الكنيسة، والذى تعكسه عبـارة داميانى، جعل المشكلة أكثر الحاحا. وقبل ذلك لم يكن ثمة شـك فى أن المطلوب من رجال الكنيسة على طريق الروح كثير؛ لأن هذا كان ما يبرر السلطات المقـدسة فى عقول العامة. إلا أن الشكوك بدأت تثور حول هذه المسألة. فقـد أتضح للكثيـرين من رجال الكنيسة فى القرن الحادى عشر أن الأخلاقيات الراقية، والحماسة الدينية المتأججة فى صدور رجال الكنيسة لا تكفى وحدها لتبرير سلطان الكنيسة الشـاملة. وإلا فـإن الكنيسة سـوف تذوب فى العـالم الـذى اعتنق المسيحيـة، وبـذلـك يفقـد الكنسيون موقعهم المميز فى المجتمع.

ومـع منتصف القرن الحـادى عشر كـان رجال الكنيسـة فى جميع أنحـاء الغـرب الأوربى يجابهون هذه المشكلة الجديدة الحرجـة. إذ أنهم عرفـوا أن الملوك من أمثال هنرى الثالث الألمانى ووليم المعترف كانوا رهبانا فى ثيـاب دنيويـة، وأنهم شغوفـون بقيـادة المسيرة الـدينية. واكتشفـوا أن العديـد من النبـلاء أخـذوا حـركـة «سـلام الـرب»[1] مأخـذ الجد، وأوقفـوا الأراضى والأملاك عـلى الأديرة والكـاتدرائيـات،

(١) حـركة دينيـة اجتماعيـة بدأت فى غـرب فرنسـا فى القرن العـاشر كـرد فعل للفـوضى الاقطاعية. وكانت الكنيسة تتولى الدعاية للحركة. وفى سنـة ١٩٨٧ اجتمع مجمـع كنسى فى شارو Charrou وأصـدر مرسـوما بـالسلام بـين المسيحيين، مهـددًا بتوقيـع عقوبـة الحرمـان عـلى من=

كما قاموا برحلات الحج الشاقة، وكان أملهم أن يموتوا وهم فى مسوح الرهبان. بل أن البورجوازيين الأدنياء أظهروا من الدلائل ما يشير إلى أنهم سايروا هذه الاتجاه الجديد، بدعمهم للكنائس البلدية وإخلاصهم للاحتفالات الدينية. وكان لابد لمثل أولئك العلمانيين أن يتوقعوا أن يظل رجل الكنيسة على تفوقه الأخلاقى بالنسبة لهم كما كان الحال فى الأيام الخوالى عندما كان المجتمع وحشيا وثنيا. لقد كان من الممكن الاحتفاظ بسيطرة الكنيسة على المجتمع العلمانى، والابقاء على احترام العلمانيين للرهبان بصفة خاصة، عن طريقة زيادة مشاعر التقوى وتدعيم القيم الأخلاقية فيما بين الرهبان أنفسهم.

لقد قدم البندكتيون العدد الأكبر من قيادات الكنيسة فى القرن الحادى عشر، مما جعل الرهبان أشد حساسية تجاه المد الدينى فى صفوف العلمانيين. وتكمن أصول حركة الأصلاح الجريجورى فى الاتجاهات الجديدة التى تطورت فى الحياة الديرية فى القرن الحادى عشر وفى روح جديدة جعلت الكثيرين من الرهبان يسخطون على الحياة الدينية الكلونية السائدة وأدت بهم إلى تكريس مثل ديرية مختلفة أشد صرامة. ومن ثم يمكن أن نجد جذور الحركة الجريجورية فى الأزمة التى عانتها الديرية الغربية فى القرن الحادى عشر.

لقد ظهرت البوادر الأولى للموقف الجديد تجاه الحياة الديرية (والأرجح أنه، على وجه الدقة، موقف قديم جدا أعيد احياؤه) فى شمال إيطاليا سنة ١٠٠٠ ميلادية تقريبًا. فللمرة الأولى منذ القرن الرابع على الأقل، ظهر الشكل المتقشف للديرية بشكل ملحوظ فى غرب أوربا. ولا غرو فى أن يكون أول ظهور أولئك النساك فى شمال أيطاليا. والزهد المتطرف ليس من خصائص المجتمع الزراعى

= ينتهكون السلام. وقد رفع الأساقفة السلاح لفرض احترام السلام مما نتج عنه توسيع ضياعهم الاقطاعية وزيادة عدد أنصالهم. وفى القرن الحادى عشر تحولت حركة «سلام الرب» إلى حركة «هدنة الرب Truce of God التى منعت الهجوم على الاكليروس وغير المحاربين، وتقيد الحروب فى فصول معينة وثلاثة أيام فى الأسبوع. وحين لقيت الحركة تأييد الكلونيين انتشرت فى فرنسا وايطاليا والمناطق التى كانت السلطة الملكية فيها ضعيفة، ولكنها فى انجلترا وألمانيا استبدلت بالسلام الملكى أو الامبراطورى. وبعد أن أيدت البابوية هذه الحركة سنة ١٠٥٨ تأسست مؤسسات للسلام، مثل المحاكم التى كانت مهمتها الحيلولة دون نشوب الحروب الاقطاعية. وقد أنشئت الميليشيات لفرض السلام على المخالفين. وفى القرن الثانى عشر، ومع احياء السلطة الملكية فى فرنسا استخدم الملوك مؤسسات السلام لفرض سلطتهم. (المترجم)

النامى حيث يكون مستوى المعيشة هامشيا وقانعا بالقليل فى جميع الأحوال. فلابد للزهد من مجتمع ثرى، وأطايب الحياة والتنافس الذى يميز الاقتصاد الحضرى، لكى يثور ضده. وكان هذا هو الواقع الذى يعيشه عالم شرق المتوسط فى القرن الرابع عندما ذاع صيت آباء الصحراء، كذلك كان هذا هو الحال فى شمال إيطاليا عند بداية القرن الحادى عشر حيث وجد المجتمع الحضرى للمرة الأولى فى تاريخ تطور أوربا الغربية فى العصور الوسطى. ففى شمال الألب بدأت حركات تقشفية جديدة تظهر فى منتصف القرن الحادى عشر. وفى شمال فرنسا، والفلاندرز، وأراضى الراين بصفة خاصة، نسمع عن رهبان مخلصين يديرون ظهورهم للراحة والأمن فى رحاب الأديرة الكلونية، ليذهبوا إلى مناطق الحدود فى مجموعات صغيرة لكى يشكلوا جماعات رهبانية جديدة صارمة فى تقشفها. هذه المؤسسات الديرية الجديدة المنعزلة تبلورت فى القرن الثانى عشر فى الحركة السسترشيانية الكبرى وغيرها من النظم الرهبانية الجديدة. وعلى أية حال، فإنه على الرغم من ظهور جماعات زاهدة جديدة أكثر صرامة فى شمال إيطاليا، ظلت شخصية الناسك - القديس الجوال قوة دفع أساسية فى الحياة الدينية فى القرن الثالث عشر لتبلغ الذروة فى الحركة الفرنسسكانية.

وسواء كان القادة الروحيون لحركة الزهد الجديدة فى الديرية الغربية يسيرون على هدى الديرية الباكرة، أو يحتذون خطى الرهبان المتأخرين، فانهم اتفقوا على انتقاد النمط الكلونى السائد فى الحياة الدينية. إذ أنهم كانوا يعتقدون أن دير كلونى وغيره من الأديرة البندكتية الكبرى فى ذلك الزمان قد قصرت بشكل محزن فى التزامها بالقاعدة التى كان مؤسس النظام قد أرساها. وبغض النظر عن التهليل للتأثير الدنيوى وممتلكات البندكتيين الشاسعة، فان زعماء الحركة التقشفية قد شكوا من أن ثروات الأديرة وسلطتها كانت مصدر افساد لأعضائها، لأنها كانت تنأى بهم عن تحقيق المثل الديرى. وتمثل الحل آنذاك أمام النساك من أعضاء الجماعات الديرية الجديدة فى الخضوع الصارم لقسم الفقر: بمعنى أن يعيشوا مثلما كان رهبان مونت كاسينو يعيشون فى زمن القديس بندكت، أى أنه يجب عليهم العودة إلى المثال الروحى الذى ضربته كنيسة الحواريين. وفى هذا الصدد، كما فى غيره، يتحدث بطرس داميانى إلى جيل جديد من رجال الكنيسة ذوى الميول التطهرية بقوله: «إننا لا نتخلى عن الوظائف النبيلة والمكاسب الدنيوية فحسب، ولكننا أيضا نتخلى عن هذا الأشياء بشكل دائم». وقد تمكن الرهبان، بانتهاج هذا الإصلاح العظيم فى الحركة الديرية، أن يحتفظوا بزعامتهم للمجتمع المسيحى، وهو ما كانوا به جديرين.

كيف تمثلت نتيجة هذه التغيرات الحرجة فى الثورة الجريجورية والصراع الذى لم يلبث أن نشب حول النظام العالمى الصحيح؟ لم يكن حتميا أن يؤدى أى منها إلى الآخر، ولكن ذلك كان تطورا طبيعيا فى ظل ظروف العصر. فقد كان جميع الرجال الذين تبوأوا مكان الصدارة فى البلاط البابوى فى خمسينيات القرن الحادى عشر من الرهبان، وكان طبيعيا بالنسبة لهم أن يحملوا اهتماماتهم التقشفية التطهرية خطوة واحدة خارج الدير لكى يطبقوها على الكنيسة بأسرها. وهكذا كرس داميانى سنوات طويلة فى محاولة إصلاح رجال الكنيسة الفاسدين فى شمال إيطاليا. وكانت الخطوة الأولى تبدو منطقية على الرغم من كونها غير حتمية، هذا الخطوة هى نقل النبض التقشفى والتطهرى إلى العالم نفسه. كان هذا هو أصل الهجمة الجريجورية على النظام السائد فى العالم المسيحى بأسره، وهو ما يمكن تفسيره فى ضوء ظروف التوازن الذى شهدته العصور الوسطى - أى تداخل كل من الكنيسة والعالم فى الآخر. وإذا كانت الكنيسة والعالم مرادفين لبعضهما، كما قال كثير من المعاصرين، فكيف يمكن إذن لحركة التقشف والإصلاح أن تتوقف داخل نطاق الكنيسة؟ ولأن الكنيسة لم تكن لها حدود، أو لأن حدودها على الأقل كانت هى حدود العالم نفسه، فإن الثورى الجريجورى كان يشعر أنه مضطر إلى تطبيق مثله التطهرية على كافة جوانب الحياة الاجتماعية وإلى بناء نظام مسيحى عالمى موحد Christianitas، على حد تعبير جريجورى السابع. لقد أخذ الجريجوريون التعريف العام للكنيسة والعالم فى القرن الحادى عشر مأخذ الجد تماما، ومن ثم كانت ايديولوجيتهم تفرض عليهم أن يحملوا النبض التقشفى الإصلاحى من النساك والجماعة الديرية الجديدة، إلى أكثر جوانب الحياة حيوية خارج حدود الدير. وتأكدت الدروس المستفادة من ايديولوجيتهم من البناء القائم على المؤسسات فى العالم الذى كانوا يعيشون فى رحابه. لقد كان الرهبان يحتلون مكان الصدارة فى كنيسة القرن الحادى عشر بحيث كان يصعب الاقتناع بأن أى تغيير حاسم فى الحياة الديرية لن يؤثر فى الكنيسة ويؤدى إلى إصلاحها ككل. كذلك كانت الكنيسة والملكية فى معظم أنحاء أوربا مرتبطتين ببعضهما بحيث كان الإصلاح الكنسى الثورى يستوجب ثورة سياسية واجتماعية.

٢ - النقاش حول أسس المجتمع المسيحى

مع بداية خمسينيات القرن الحادى عشر كان مساعدو البابا الرئيسيون قد انتظموا فى «هيئة الكرادلة». ومصطلح «كاردينال Cardinal» مشتق من الكلمة

اللاتينية التي معناها «مفصلة» الباب؛ أي أن الكرادلة كانوا هم «المفصلات» التي يتحرك عليها الباب البابوى الكبير. وكان مصطلح «كاردينال» يتناسب بصفة خاصة مع الرجال الذين كانوا يسيطرون على البابوية فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر، وهم الذين حاولوا تنفيذ الإصلاح الجريجورى. وكان عددهم قليلا بشكل ملحوظ إذ لم يكونوا جميعا يزيدون عن اثنى عشر شخصا على مدى فترة استمرت أكثر من نصف قرن، ولكن أهميتهم بالنسبة للحركة الجريجورية كانت فائقة. والواقع أنه لم يتول العرش البابوى من الراديكاليين الحقيقيين سوى اثنين فقط هما جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥)، وباسكال الثانى (١٠٩٩ - ١١١٨). أما المصلحان الجريجوريان الآخران البارزان فهما الكاردينال بطرس داميانى (ت ١٠٧٢)، وهيومبرت (ت ١٠٦١). وغالبا ما كان هذا الأخير يعرف باسم هيومبرت من سيلفا كانديدا Humbert of Silva Candida، نسبة إلى الكنيسة الصغيرة الكائنة فى روما والتى كان هو المسئول أدبيا عن رعايتها إلى جانب منصبه الكاردينالى، كما جرت العادة آنذاك.

كان المصلحون الجريجوريون الأربعة الذين تزعموا الحركة مجموعة متميزة من الرجال مثلما كان يحدث طوال التاريخ الأوربى. وهم لم يسيطروا فقط على الكنيسة فى القرن الحادى عشر، ولكنهم أيضا ساهموا فى التيارات الثقافية الرائدة فى ذلك العصر. وفى جميع الحالات ظلت المذاهب التى روجوها باقية بعدهم وحتى بداية القرن الثانى عشر، ولكنها دخلت فى المجرى الرئيسى للفكر فى العصور الوسطى. لقد خرجت الأفكار الجريجورية العالمية فى اتجاهات شتى دون أن تنحصر فى حدود الكاثوليكية الضيقة. وانبرى نفر آخر من الكنيسيين المتعلمين المخلصين لتحدى المذاهب التى نشرها الجريجوريون حول طبيعة المجتمع المسيحى، ومن غمار هذا الصراع الثقافى برزت فى النهاية الخطوط العريضة لكافة المواقف الأيديولوجية التى قيض لها أن تتطور على نحو أكثر إكتمالا فى القرون الخمسة التالية. وكثير من المناقشات التى دارت إبان فترة الإصلاح الجريجورى ما تزال وثيقة الصلة بتجاربنا ومشكلاتنا الحالية.

ومن بين الرجال الذين نطلق عليهم اسم المصلحين الجريجوريون كان سان بطرس داميانى هو الوحيد الذى يحظى بحب الجميع وإحترامهم، كما كان أقلهم إثارة للنزاع فى زمانه. ومع هذا فإن ذلك النموذج الملهم، وما تضمنته مذاهبه من دلالات تستعصى على مداركنا أكثر مما خلفه غيره من المصلحين الجريجوريين بسبب

طبيعتها المسهبة، وبسبب تغلغلها وتأثيرها فى ثقافة العصور الوسطى وآدابها ككل. ولقد كان دانتى منصفا حين وضع داميانى فى «الكوميديا الإلهية» فى واحدة من أعلى دوائر السماء واعتبره سلفا لسان فرنسيس. والحقيقة أنه يمكن القول بأن سان فرنسيس لم يكن سوى التطور الختامى لحركة دينية كان داميانى هو أبرز وأقوى مؤسسيها.

وتعكس كتابات داميانى الضخمة الحال الروحية فى شمال إيطاليا فى النصف الأول من القرن الحادى عشر، أى حين قدم إلى البلاط البابوى. وُلد داميانى حوالى سنة١٠٠٧. وكان يتيما من عائلة فقيرة فتبناه أحد القساوسة، وتلقى تعليما راقيا فى اللاهوت والقانون الكنسى، ثم صار واحدا من زعماء حركة الزهد الجديدة فى شمال إيطاليا. وقد أسترعى إنتباه البابا ليو التاسع بسبب إدانته العنيفة لفساد الرهبان فى المدن الإيطالية، فعينه البابا كاردينالا وحاول أن يسخر طاقاته فى خدمة روما. ولم يسعد داميانى قط بوظيفة الكاردينال؛ فقد كان من طراز الناسك - القديس الجوال والمبشر أكثر منه مصلحا نظاميا. وأوفد داميانى إلى ميلانو فى محاولة لإصلاح كنيستها، ولكنه لم يحقق نجاحا كبيرا. إذ أنه وجد نفسه على خلاف مع هيلدبراند (الذى صار البابا جريجورى السابع فيما بعد)، وهيومبرت، زميليه فى هيئة الكرادلة، وكان يعجب بهما ولكنه رأى فيهما التهور والرعونة. لقد كان من ذلك الطراز من الرجال الذين يلهمون الثوريين، بيد أن وداعته، وميله إلى الإحسان، كانت تحول بينه وبين أن يصير هو نفسه رجلا ثوريا. وكانت وفاته فى السنة السابقة على إرتقاء هيلدبراند للعرش البابوى أمرًا هامًا للغاية؛ لأن موته قد أزال من على المسرح الرجل الوحيد الذى كان يستطيع كبح جماح جريجورى السابع.

لقد كان داميانى هو زعيم المجموعة المعتدلة فى هيئة الكرادلة، وهى المجموعة التى حاولت تفادى الانفصال النهائى بين البابوية الإصلاحية والإمبراطور الألمانى. ولكن تعاليمه كانت على درجة كافية من الثورية، بمعنى أنها قد توصلت إلى أسس التجربة الدينية فى العصور الوسطى وساعدت على تحويل القيم الروحية. فقد شهد القرن الحادى عشر تغيرا عظيما فى مفهوم العلاقة بين الألوهية والبشرية. فالرب الحاكم، الحانق، البعيد الذى يصوره العهد القديم، والذى حكم النظرة الدينية فى العصور الوسطى الباكرة، قد تخلى عن مكانه لابن محب، منكر لذاته يصوره العهد الجديد مع أمه الباكية الحانية. لم يعد الدين مسألة قاصرة على العبادة والطاعة الشكلية، بل صار تجربة شخصية. هذه النظرة الروحية الجديدة ظهرت للمرة الأولى

فى الحـركة الـديريـة التقشفية فى شمـال إيطاليـا، كما ظهـرت من خلال التجـربـة الروحية العميقة التى مرّت بها المجتمعات الحضرية الإيطالية. وبمنتصف القرن الثانى عشر، كانت روح التدين الجديدة هذه قـد إنتشرت فى شتى أنحـاء أوربا، وتـوغلت إلى أعمق أعماق الضمير الأوربى، كما أثرت الفن والأدب وإرتقت بهما مكانـة نبيلة فى حضارة العصور الوسطى. وكان سان فرنسيس هو التجسيد النهائى لهـذا التطور، كما أن سان برنار لعب دورا هـائلا فى تقـديم الروح الـدينية الجـديدة ونضجهـا فى القرن الثانى عشر، ولكن سان بطرس داميانى كان أول من عبر بوضوح عن إنكار الذات، والإله المحب والروح الإنسانية الصاعدة فى أمل، وهى السمات والخصائص التى ميزت حركة التدين فى العصور الوسطى العالية عن التدين قبل ذلك.

وهكـذا، فإذا كـان داميانى قـد لعب دورا رئيسًا فى إثـراء المذهب الكـاثـوليكى وإكتمـاله فى العصـور الوسـطى، فإنـه يجب علينا أن ننـظر إليـه فى الـوقت نفسـه بإعتباره مؤسسا لحركة عاطفية جارفة، وهى حركة لا تستحق ثناء كثيـرا لأنه كـان يصعب على الكنيسة أن تتحكم فى هذا المفهوم حتى عـلى المدى الـطويل. ذلـك أن مشاعر التدين العاطفى الجديد، قد خلقت تعصبا طـائشا يمكن أن ينتـج من مظاهـر العنف ما لا تستطيع أية سلطة عامة أن تسيطر عليه. وكـان رد الفعل الشعبى تجـاه الحملة الصليبية الأولى من أكبر الأمثلة على هذا. وليس ممـا يدعـو إلى الدهشـة أن نجـد أن مذبحـة اليهود سنـة١٠٩٦ كانت استجـابة شعبيـة للدعوة الصليبيـة التى وجدت ذريعتها النهائية فى كتابات داميانى نفسه. بل ان التعصب ظهر فى آراء هـذا القديس وفى الحركة الصوفية التى إنتشرت فى أوائل القرن الحـادى عشر، بـاعتباره الجـانب الآخـر من التـدين الشخصى العميق الـذى بـذل داميـانى جهـدا كبيـرا لاستثارته. لقد بدأت الزيادة فى الأدب المعادى للسامية فى آخريـات القرن الحـادى عشر بكراستين كتبهما داميانى الذى لم يصل عطفه الودود إلى غير المسيحيين.

ويتمثل الإزدواج والتوتر فى المذهب الذى نادى بـه داميانى فى حقيقـة أنه عـلى الرغم من كونه أشد المدافعين عن فعالية الـطقوس الكنسيـة وضرورتهـا كوسـائط للرحمة المقدسة وعن سلطة القسـاوسـة وحدهم فى إدارة شئـونهم - على الـرغم من هـذا كانت الإتجـاهات الخفيـة الأساسيـة فى تعاليمـه تتجه إلى تقليـل التـلازم بـين القساوسة والـطقوس المقـدسة. لأنـه إذا أمكن تحقيق الربط الشخصى بـين الروح الإنسـانيـة والمسيـح المحب (فى العقليـة العـامـة عـلى الأقـل، إذا لم يمكن ذلـك فى المجالات اللاهـوتية)، يكـون هناك طـريق بديـل إلى الرب قـد صار مفتـوحا. وفى

القرن الحادى عشر لم تكن دلالات هذه الورطة الكامنة واضحة للعيان، وإنما قيض لها أن تصير مصدرا للفوضى، والشك والصراع المضنى فى العالم المسيحى فى غضون المائتى سنة التالية. ومن ثم، فإننا لا نغالى إذا إستنتجنا أن الإستنباط البعيد المدى فى تعاليم داميانى كان يسير فى الإتجاه القائل بأن الفردية الدينية سوف تمزق نسيج العالم المسيحى فى العصور الوسطى. ولا يعنى هذا أننا نقول أن داميانى كان «مسئولا» عن هذا الاتجاه المتأخر فى الجوانب الصوفية والعاطفية فى الحياة الدينية فى العصور الوسطى، ولكننا نشير إلى أننا إذا إقتفينا أثر هذا التيار الرئيسى للفكر الثورى، ونحن نعود القهقرى من القرن الرابع عشر حتى مصادره الأولى فى القرن الحادى عشر، فإن الصورة القديسية لهذا الرجل سوف تبدو فضفاضة للغاية. وهكذا، فإننا إذا إعتبرنا أن مذاهب داميانى تسير ضد البناء الكلى لثقافة العصور الوسطى، فإن هذه المذاهب سوف تبدو ثورية مثل جميع أقوال هيومبرت أو هيلدبراند وفعالها، وذلك على الرغم من أن داميانى نفسه، باتجاهاته الشخصية، يعتبر أقل المصلحين الجريجوريين ثورية.

كان منافس داميانى فى الزعامة الثقافية للبابوية الجريجورية هو الكاردينال هيومبرت من سيلفا كانديدا، وهو مفكر يتشابه مع داميانى من حيث تعليمه وسطوته، وهو من بعض الوجوه أكثر منه فطنة، وأصالة، وعقلانية. فقد جاء هيومبرت من اللورين حيث كان ليو التاسع يتولى منصب الأسقف. ومن الثابت أن هيومبرت كان من رهبان دير كلونى، وراوده إحساس قوى بأن كلونى قد خان المثل والقيم التى كان مؤسسه قد أرساها. وفيما عدا ذلك فإن سيرته تتشح برداء الغموض. وهو مثل جميع الكلونيين تقريبا، وربما كان سليل الطبقة العليا من النبلاء، وهذه الخلفية الطبقية تساعدنا على تفسير كراهيته للملكية الألمانية التى دعمت سلطتها على اللورين على حساب المعارضة المحلية القوية. ولا شك فى أن هيومبرت قد درس فى مدارس القانون الكنسى الجديدة التى إزدهرت فى اللورين وكانت معلوماته وافرة فى اللاهوت والتاريخ الكنسى، ومن المحتمل أنه كان نادرة ثقافية - إذ كان يعرف اللغة اليونانية جيدا، مع أنها لم تكن لغة مألوفة فى غرب أوربا آنذاك. وعلى الرغم من مزاجه الناقد اللاذع، وغطرسته الثقافية التى تكشف عن نفسها فى كل صفحة سطرتها يده، فإنه لم يكن بوسع الكنيسة أن تستغنى عن خدماته. فقد كان من دواعى سرور البابا ليو التاسع أن يوظفه فى خدمة البابوية حيث جعلته طاقته الخلاقة وعلمه الغزير شخصية بارزة.ولم يحل دونه وعرش

القديس بطرس سوى وفاته المبكرة، إذ توفى سنة ١٠٦١، وعمره لا يزيد على خمسين سنة.

ومعرفة هيومبرت باللغة اليونانية هى التى هيأت له سبيل القيام بدور المبعوث البابوى إلى القسطنطينية. ذلك أن موقف البابوية الهجومى المتجدد قد أدى إلى إعادة النظر فى العلاقات البابوية مع الكنيسة البيزنطية، كانت المزاعم القديمة المتعارضة لكل من البابا والإمبراطور قد بدأت تستعيد أهميتها. فالغزو النورمانى لجنوب إيطاليا، حيث كان يعيش كثيرون من اليونانيين المسيحيين، أعاد إلى أذهان البلاط البابوى مشاكل العلاقات اللاتينية البيزنطية. ولم يكن هيومبرت بالرجل الذى يتحفظ أو يتذلل فى مفاوضاته مع الكنيسة البيزنطية. وقد أنهى مهمته سنة ١٠٥٤ بحرمان بطريرك القسطنطينية، وبذلك تم الإعلان الرسمى للإنقسام الذى كان يتطور منذ القرن الخامس. وهو الإنقسام الذى لم ينته حتى يومنا هذا، على الرغم من محاولات الوفاق العديدة التى بذلت عبر القرون.

وبعد عودته إلى روما صار هيومبرت هو مُنَظِّر حركة الإصلاح وزعيم الجناح الراديكالى فى هيئة الكرادلة. وكانت سنة ١٠٥٩ هى التاريخ الحاسم الذى تجلت فيه نتائج خططه ونظرياته. ففى هذه السنة كان هو المسئول عن نشر كتابين كانا بمثابة إشارة البدء للثورة الجريجورية. وأولها مرسوم الانتخاب البابوى الذى يحدد الطريقة القانونية لانتخاب البابوات. وقد جعل الإنتخاب برمته بأيدى الكرادلة واستبعد تدخل كل من الإمبراطور الألمانى والشعب الرومانى. وبالنظر إلى حقيقة أنه قبل أقل من عشرين سنة كان هنرى الثالث يعين البابوات بشكل منتظم، فإن ذلك يعتبر علامة على تغير كبير جدا فى العلاقة بين روما والإمبراطور الألمانى. ولكن هنرى الرابع (١٠٥٦ - ١١٠٦) كان ما يزال قاصرا فى ذلك الحين، وكانت أسرته تحارب ضد عصيان النبلاء الألمان؛ وهو ما أتاح لهيومبرت أن يقوم بـ «إنقلابه» دون خشية القصاص. أما الكتاب الثانى الذى نشره هيومبرت فكان فى سنة ١٠٥٩ وهو عبارة عن رسالة تتناول علاقة الدولة بالكنيسة وعنوانها «الكتب الثلاثة ضد السيمونيين». وهو يعتبر بمثابة الصياغة الأيديولوجية للثورة الجريجورية. فهو كتاب يطفح بالكراهية العنيفة ضد الإمبراطور الألمانى وينادى بقوة بالتحرر الكامل للبابوية من ربقة السيطرة العلمانية. ولكن هناك ما هو أكثر فى رائعة هيومبرت، فهى فى أساسها هجوم على التوازن الذى شهدته العصور الوسطى الباكرة بين الكنيسة والدولة ككل.

ومثلما تعكس كتابات داميانى أحد التيارات الثقافية الرئيسية فى ذلك الزمان، أى روح التـدين الجديـدة، تعكس مؤلفات هيـومبرت الـروح الجدليـة الجـديـدة - أى التأكيد على صياغة المناقشات وفقا للقـوانين الصـارمة للمنـطق الأرسطى بـالشكل المعروف به آنذاك. وكان هيومبرت فارسا لا يشق له غبار فى هـذا الميدان، وكـانت تلك طريقة للمناقشة تتناقض تماما مع ذلك النوع من النـثر البلاغى البـاهت الذى عرفته العصور الوسطى الباكرة. وقد استخدم هذه الأداة الجـديدة بـإقتداره الـرائع لتقويض النظام العـالمى القائم. إذ أنـه كان يقـول أن السيمونيـة ليست مجرد بيع وشراء المناصب الكنيسة؛ وإنما هى تدخل العلمـانيين فى شئـون الكنيسة. وقـد أدان بهذا التعريف كثيرا من مؤسسات النظام السائد فى المجتمع الغـربى - مثل التقليـد العلمـانى، والكنائس الامتـلاكية، والتـدخل الملكى فى شغـل الوظـائف الكنسيـة - باعتبارهـا أخطاء تشـوب العقيدة. وبنـاء على منـطق هيومبـرت، لم يكن هناك ملك أو نبيل فى غرب أوربا، فضلا عن بعض رجال الكنيسة، تبرأ ساحتـه من المشاركـة فى الأعمال التى تدين روحه.

كـان هذا دواء نـاجعا لـداء الكنيسة العضـال، إلا أن هيـومبـرت لم يقنـع حتى بالتوقف عند هذا الحل الجذرى. ذلـك أن سحر الجـدل القاتـل، قاد بعضـا من ألمع مفكرى العصور الـوسطى إلى مستنقعـات الهرطقـة خلال القـرون الثلاثـة التاليـة، وزعموا أن هيومبرت كان الضحية الأولى على طريقهم. ذلك أن نـزعته التـطهريـة دفعت به عبر الخطوات المنطقيـة إلى استنتاج أنـه إذا لم يمكن إصلاح الاكليـروس، بطريقة أو بأخرى، فإن الناس سوف يمحصون الشخصية الأخلاقيـة لقسيسـهم، فإذا ما وجدوها غير مرضية فإنهم بالضرورة سيرفضون الطقوس المقدسة التى يقوم بهـا. وهكـذا انساق هيـومبرت إلى إحيـاء المذهب الـدونـاتى القـائـل بـأن قيـام قسيس مـا بالـطقوس المقـدسة وهـو يفتقر إلى الجـدارة والاستحقاق يجعلهـا كأنها لم تكن، وما يترتب على ذلك بـالضرورة من حق العلمـانيين فى الحكم عـلى القساوسـة. لقد عمل سان أوغسطين بدأب ضد هذه المبادئ نفسها قبل أكثر من ستة قرون، وكـان حصاد عمله أن أدانت الكنيسة المذهب الدوناتى باعتباره أخطر الأخـطاء. لقد كـان مقـررا أن الكاهن يقـوم بالـطقوس المقـدسة بـاعتباره ممثـلا للرب، وأن صـلاحيـة الطقوس لا تعتمد على السجايا الشخصيـة القسيس، وإنما عـلى المركـزالذى يشغله، وبذلك ليس من حق العلمـانيين الحكم عـلىرجال الكنيسـة. وينبغى أن ننظر إلى إحيـاء هيومبرت للدوناتية عـلى أنه نتـاج مباشـر لتطور مشـاعر التـدين بين العلمـانيين. فمن

الواضح أن كان يحترم آراء كثير من العلمانيين، أكثر من احترامه لرعاتهم الرسميين.

والواضح أن هيومبرت قد سقط فى خطأ مذهبى، وأن تأثير تعاليمه التى لقيت قبولا واسع النطاق لم يتعد هدم سلطة القساوسة وإنكار المفهوم الكاثوليكى عن تفوق المنصب على الشخصية الأخلاقية الفردية لرجال الكنيسة. لأن ذلك ببساطة، كان سيؤدى إلى حلول كنيسة من القديسين محل الكنيسة الكاثوليكية. وقد سارع داميانى إلى التنبيه إلى الاتجاهات الدوناتية فى مقالة هيومبرت؛ فقد كان ذلك بالنسبة له درسا فى مخاطر الجدل الذى كان يشك كثيرًا فى جدواه بالنسبة للكنيسة. ومع ذلك فإن أشخاصا آخرين، ممن ألهبتهم نار التعصب التطهرى، وتأثروا بشخصية الكاردينال هيومبرت القوية وسطوته الفكرية الهائلة، لم يدركوا المخاطر والنتائج المدمرة لجدل هيومبرت بمثل هذه السرعة. أما هيلدبراند الذى كان واقعا تحت تأثير هيرمبرت القوى، فقد تباطأ فى دحض المذهب الدوناتى الجديد الذى جاء به هيومبرت ولم يحاول إدانته سوى فى الشطر الأخير من بابويته.

ومع أن البابوية أدانت احياء الايديولوجية الدوناتية على يد هيومبرت الذى كان كاردينالاً بارزا، كما كان أقدر المنظرين فى القرن الحادى عشر -على اعتبار أن هذا الاحياء من أخطر الأخطاء على العقيدة، وهو موقف لم تحد عنه الكنيسة الكاثوليكية إلى اليوم - فإن احياء الايديولوجية الدوناتية كان حادثا ذا مغزى فائق الأهمية بالنسبة لتطور كنيسة العصور الوسطى. ففى النصف الثانى من القرن الثانى عشر كانت الدوناتية هى النبع الفياض الذى نهلت منه الحركات الهرطقية والمذاهب المخالفة التى تبلورت فى البروتستانتية فى القرن السادس عشر. وحتى الآن لم يقم أى باحث بتحديد الخط الدقيق الذى يربط بين مقالة هيومبرت «ضد السيمونيين» والهراطقة الذين ظهروا بأعداد كبيرة بشمال ايطاليا فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر. وعلى أية حال فلن نبالغ إذا افترضنا أن تعاليم هيومبرت، التى أدانتها البابوية فى نهاية الأمر، قد دخلت ضمن مقومات الحياة الدينية النشطة التى شهدتها مجتمعات شمال ايطاليا الحضرية، كما أنها لعبت دورًا رئيسيا فى تحول حركة التدين العلمانى الجديد إلى هرطقة شعبية.

إذا ما قارنا هيلدبراند بكل من داميانى وهيومبرت لوجدنا أنه ليس مفكرًا أصيلًا. إلا أنه كان لا يبارى كواحد من الايديولوجيين. فقد نهل من عدة موارد فى آن واحد، كما تشرب الأفكار الثورية التى انتشرت فى أيامه، وصاغ هذا كله فى

برنامج صلب شامل للثورة. وحين تولى البابوية تحت اسم جريجورى السابع حاول أن يفرض هذه المذاهب، وبذلك فتح الباب على مصراعيه أمام الصراع الكبير بين البابا والامبراطور، وهو الصراع الذى هز المجتمع الغربى من أساسه. وأيا كان الحكم على ايديولوجيته، وجدواها، والانجازات التى تمت أثناء بابويته، فإن جريجورى السابع يجب أن يعتبر من البابوات الثلاثة الكبار فى العصور الوسطى. فمن بين جميع البابوات الذين تعاقبوا على عرش القديس بطرس قبل القرن السادس عشر، لا يمكن مقارنة أحد بجريجورى السابع غير جريجورى الأول وإنوسنت الثالث. ولم يكن هناك من البابوات من أثار حوله من الجدل مثلما فعل جريجورى السابع. ذلك أنه لم يكن بمقدور أحد فى أوربا فى سبعينيات وثمانينيات القرن الحادى عشر أن يحتفظ لنفسه برأى محايد تجاه جريجورى. فقد كان محل إعجاب البعض وحبهم الشديد، كما كان فى الوقت نفسه مثارا لمشاعر الكراهية والاحتقار التى لم تلحق بغيره من البابوات.

وبسبب الجدل والنزاع حول جريجورى السابع يصعب علينا أن نقرر بعض الحقائق الأساسية فى سيرته والجوانب الأساسية البارزة فى شخصيته. وقد بلغت القصص والأساطير التى رويت لصالحه أو ضده حدا جعل شخصيته شخصية غامضة إلى حد ما. فقد كان من مواطنى روما، وانخرط فى خدمة البابوية وهو على أعتاب الرجولة. وقبل بابوية ليو التاسع سنة ١٠٤٩ كان هيلدبراند قد صار بالفعل رجلا هاما فى الدوائر البابوية. وعلى الرغم من أنه على مدى ربع قرن تخطاه فى الانتخابات البابوية مرشحون أقل منه مقدرة، فإنه كان قوة مسيطرة فى هيئة الكرادلة كما كان هو الرئيس الفعلى للإدارة البابوية. كان موقف هيلدبراند من الكرسى البابوى وطنيا، إذا صح التعبير، أو على الأقل محصورًا فى نطاق روما. وبغض النظر عن المسائل الايديولوجية المطروحة، فإنه أدان الامبراطور الألمانى باعتباره دخيلا أجنبيا لا يحق له التدخل فى الشئون الايطالية التى يجب أن تترك للسياسة البابوية. وكما أشار سوثرن R.W. Southern فإن آخر كلمات هيلدبراند حين مات فى جنوب ايطاليا سنة ١٠٨٥، بعد أن طرده الجيش الألمانى من روما، كانت ذات مغزى عميق، إذ قال «أحببت العدل، وكرهت البغى، ولهذا أموت منفيا». أى أن أى مكان خارج المدينة الخالدة كان بمثابة المنفى لهذا المواطن الرومانى.

من الصعب أن نتعرف على الخليفة الأسرية لهيلدبراند. فقد زعم بعض

المعاصرين أنه كان من البورجوازيين؛ وربما كان هذا افتراء، بيد أنه إذا كان حقيقة فإنه سوف يساعدنا على تفسير كراهيته العنيفة للنظام القائم. ولا شك فى أن هيلدبراند كان رجلا صعب المراس. إذ أن مقدرته الادارية الفذة، وحماسته التطهرية، وطاقته الخيالية جعلت منه قائدًا كبيرًا، ولكنها أيضًا جعلت منه زميلا شديد الوطأة. بل إن داميانى العطوف يشير إليه بعبارة «الشيطان المقدس». كما أن هوف رئيس دير كلونى، الذى كان عجوزا مدققًا من رجال كنيسة القرن الحادى عشر، كرهه عندما رآه واعتبره شخصا يسعى إلى المناصب لا غير، وبذل كل ما فى وسعه للحيلولة دون تنفيذ خطط جريجورى.

كان هيلدبراند عليما بالقانون الكنسى، دون أن يكون عالما عظيما أو مفكرًا منهجيا، كما كان عارفا باللاهوت والتاريخ الكنسى، ومع أن هيلدبراند كان ينقصه اهتمام العالم الحقيقى بالمعرفة فى حد ذاتها، فإنه استفاد بسرعة من حركة التعليم فى القرن الحادى عشر فى تدعيم وجهة نظره، وهو عمل علمى كان يتم فى الوقت نفسه فى شمال فرنسا واللورين. وكان القانون الكنسى يضم كمًا هائلا غير منظم من المواقف المتناقضة فأراد جريجورى أن يتأكد من أن جمع القوانين وتنظيمها قد تم فى اتجاهات تخدم السلطة البابوية. ولو كان هيلدبراند قد فعل هذا فقط ولم يفعل شيئًا آخر، فإنه يكون بهذا قد ساهم مساهمة كبيرة فى النهوض بالسلطة البابوية، ذلك أن هذه العملية بدأت تؤتى ثمارها فى منتصف القرن الثانى عشر فى شكل قانون كنسى يؤكد سلطة الكنيسة المطلقة ويرفض تراث العصور الوسطى الباكرة بأسره.

وعقب تولى هيلدبراند لعرش القديس بطرس سنة ١٠٧٣، واصل بحثه فى القانون الكنسى لصالح البابوية. وهو نفس الغرض الذى جعله ينشر الـ Dictatus Papae الذى هو تقرير لسلطة البابوية. وهذا المقال يؤكد أن الرب وحده هو الذى أسس الكنيسة الرومانية، وأن المنصب البابوى فقط هو صاحب السلطة العالمية، كما أن البابا وحده هو الذى يملك حق عزل الأساقفة، أو إعادتهم لوظائفهم السابقة، أو نقلهم إلى أسقفيات أخرى. ولا يمكن أن يكون ثمة مجلس كنسى شرعى دون موافقة البابا. كما أنه ليس باستطاعة أحد أن يدين من يستأنف قضيته أمام البلاط البابوى، الذى هو أعلى محكمة فى العالم المسيحى. وليس هناك كتاب أو مرسوم يمكن اعتباره قانونيا بدون الموافقة البابوية. فضلا عن أن البابا يسمو فوق أى إنسان؛ فالرب وحده هو الذى يحكم على أعماله. والكنيسة الرومانية، أى البابوية،

لم تخطئ أبدا، كما أنها لن تخطئ أبدا وفقا لما ورد فى الكتاب المقدس. وزعم هيلدبراند أن البابا قد اكتسب قداسته بفضل موافقة القديس بطرس. كما قال إن أحدا لا يمكن أن يكون كاثوليكيا صادقا ما لم يوافق على ما يأتيه البابا من فعال. وهناك فروض أخرى فى كتاب الاملاء البابوى تتناول العلاقة بين الدول والبابوية. وأكد على أن من حق الباب وحده الاحتفاظ بالشارات الامبراطورية، على اعتبار أنه هو الخليفة الحقيقى لقسطنطين. كما أدعى هيلدبراند أن للبابا الحق فى عزل الأباطرة، وأن القانون يقضى بأن يتقدم الرعايا باتهاماتهم ضد حكامهم إلى المحكمة البابوية.

لقد كان الـ Dictatus Papae وثيقة ثورية مثيرة إلى أبعد الحدود، ومن غير المعقول أن نظن أن هيلدبراند كان من السذاجة بحيث لا يتأكد من أنه سوف يخلق مثل هذا الانطباع.لقد كان هذا الكتيب اقرارا للبرنامج الثورى الذى قصد جريجورى أن يسير على هديه: أى خلق نظام عالمى جديد يناسب المجتمع المسيحى القائم على أساس أن السلطة البابوية وحدها هى السلطة العالمية الكاملة، على حين أن جميع السلطات فى العالم، سواء الأباطرة، أو الملوك، أو الاساقفة، سلطات خاصة ناقصة. وفكرة كمال السلطة البابوية لم تكن فكرة جديدة بأى حال من الأحوال؛ إذ أننا نجدها فى الجوانب الثورية من المذهب الجيلازى، وفى هبة قنسطنطين، وفى تصريحات البابا نيقولاس الأول فى القرن التاسع. وباستطاعة جريجورى أن يزعم، بحق، أن كل فرض من الفروض الواردة فى كتاب الاملاء البابوى كان مجرد اقتباس من نص سابق ورد فى أحد القوانين الكنسية فى العصور الوسطى الباكرة. إلا أن الخاصية الثورية فى أى برنامج لا يقلل من شأنها أن هناك من قالوا نفس الأقوال فى الماضى، لقد كان الـ Dictatus Papae وثيقة ثورية بالنظر إلى عمق تأكيده للسلطة البابوية المطلقة، ومن حيث تناقضه مع النظام العالمى السائد. لقد ظلت البابوية على مدى مائتى سنة سلطة موقوفة، وقد ازدهرت الأسقفيات والأديرة فى غرب أوربا فى تلك الأثناء بمساندة ضئيلة من روما، وربما بدون مساندة منها على الاطلاق، ومن المؤكد أن هذا الازدهار قد حدث دون اشراف من البابوية على شئونها. ولهذا لم يستطع كبار رجال الكنيسة فى شمال أوربا مغالبة شعورهم بالقلق من جراء هذا التأكيد المطلق على خضوعهم النهائى لروما، وهو أمر يتناقض تماما مع التجربة العامة. إذ لم يكن باستطاعتهم أن ينكروا الأسس القانونية، وربما اللاهوتية، التى تقوم عليها مزاعم جريجورى، ولكنهم أحسوا أن برنامج جريجورى غير ضرورى ومتهور، فضلا عن أنه يمثل خطرا يتهدد أسلوب حياتهم ككل. فقد

مضت الكنيسة فى ألمانيا وفرنسا وانجلترا دونما متاعب أو صعاب على مدى قرنين من الزمان دون أن تعتمد على مساعدة البابوية. وكان كثيرون من رجال الكنيسة فى أوربا، وربما كانوا هم الغالبية يرون، أن الـ Dictatus Papae ليس سوى تأكيد صارخ للسلطة البابوية التى رقدت طويلا فى غياهب النسيان، والتى لم تجد من يمارسها بشكل فعلى سوى فى القليل النادر، كما أنه ليس سوى توظيف لهذه النظرية فى خدمة الطموح الشخصى لهيلدبراند.

أما بالنسبة لملوك غرب أوربا فإن كتاب الاملاء البابوى كان يبدو بالضرورة ثوريا ومزعجا إلى أبعد الحدود. فقد كان يدعى التفوق والسمو للبابوية على الملكية، وهو أمر لم يحدث من قبل فى التاريخ الأوربى على الاطلاق. ومع التسليم بأن هبة قنسطنطين تحمل مزاعم مماثلة، فإن أحدا من حكام أوربا العصور الوسطى البارزين لم يسمح للبابا بالتدخل فى شئون مملكته. هذا التأكيد على الملكية البابوية المتفوقة كان صدمة لزعامة ملوك الغرب فى المجتمع، ولسلطتهم المطلقة على الكنائس الإقليمية، وهى الزعامة والسلطة التى كانوا يمارسونها منذ أيام شارلمان.

وكان على رجال الكنيسة وملوك غرب أوربا أن يعرفوا أن جريجورى السابع قد عقد العزم على تنفيذ برنامجه الذى أعلنه بوضوح فى الـ Dictatus Papae، بمجرد ارتقائه للعرش البابوى. كما تعين عليهم أيضا أن يعرفوا أن هذه الايديولوجية كانت أكثر ثورية مما يبدو من الفروض القانونية البسيطة الواردة فى البيان الأول لبرنامجه. فقد مضى جريجورى خلال السنوات الاثنتى عشرة العاصفة التى تولى فيها البابوية فى صياغة ايديولوجيته الثورية وتهذيبها، مسترشدا بخطى سان أوغسطين من ناحية، ومستلهما المنابع العاطفية لروح التدين الجديدة التى سرت بين الناس من ناحية أخرى، ومتأثرا بتعاليم هيومبرت من ناحية ثالثة. وكل خطاب تقريبا من بين مراسلاته الرسمية الضخمة يتضمن قدرا من هذا المذهب، ولكن نظريته النهائية عن النظام الاجتماعى المسيحى قد صيغت ككل وطرحت على نحو قوى فى خطابه الشهير باسم «خطاب إلى هرمان الميتزى» Herman of Metz فى سنة ١٠٨٢. والخطاب عبارة عن عدة اجابات على أسئلة طرحها أسقف ميتز، ولكنه فى الواقع عبارة عن كتيب عام. وقد نشر فى نسخ عديدة، وأرسل إلى بلاط كل ملك فى أوربا، كما أرسلت منه نسخ إلى الكنائس الهامة فى شتى أرجاء أوربا.

ومنذ القرن التاسع كانت الاوغسطينية السياسية آخذة فى الضمور والتلاشى. ذلك أن التحسن الاجتماعى الذى كان من نتاج حكم كل من شارلمان، وأوتو

الأول، وهنرى الثالث، كان يتناقض بشكل واضح مع العيوب وأوجه القصور التى كان أوغسطين قد نسبها إلى الخاصية الأخلاقية للدولة. لقد كان رجال الكنيسة يرون فى ملوك القرنين العاشر والحادى عشر الثيوقراطيين زعماء أرسلتهم العناية الآلهية لتحقيق عمل الرب، ولم يكونوا هم أولئك القراصنة الذين تحدث عنهم أوغسطين. لقد كان التمييز بين الكنيسة ecclesia والعالم mundus فى عمومه موقفا يختلف تماما عن ذلك الفصل الحاد الذى كان أوغسطين قد وضعه بين المدينة السماوية والمدينة الأرضية. فقد كانت وجهة النظر الاوغسطينية القائلة بأن الدولة ليست لها أية سجايا أخلاقية خاصة بها، وإنما تستمد خصالها فقط من خلال وضعها كخادم للكنيسة، تبدو رأيا فارغا وخاليا من المضمون فى عالم لم يكن به خط واضح يفصل بين الكنيسة والدولة. ولكن هذه النظرة الأوغسطينية السياسية هى التى أحياها جريجورى السابع فى أكمل وأعمق صيغة. وفى خطابه إلى هرمان الميتزى قال إن السلطة السياسية فى أصلها من خلق البلطجية والقتلة، وأن الدولة ظلت تحمل طابع قابيل (الذى قتل أخاه). كما قال إنه فى التاريخ العالمى ككل لم يوجد أكثر من ستة ملوك استطاعوا أن ينجوا بأرواحهم من اللعنة، وهؤلاء الملوك من أمثال قنسطنطين، وثيودوسيوس الكبير، هم الذين أنقذوا أنفسهم من اغراءات السلطة الدنيوية القاتلة بخضوعهم للكنيسة. وقال إن هناك كثيرين من المسيحيين البسطاء، كانوا أكثر اطمئنانا بدخولهم فى رحاب الرحمة المقدسة من الملوك الكبار الأقوياء، الذين هم فى معظم الأحوال مجرد أدوات يعبث الشيطان بها.

وإذ استمر جريجورى على نفس الخط الذى سار عليه أوغسطين، فإنه توصل إلى استنتاج أن السلطة الشرعية الوحيدة فى العالم هى سلطة القساوسة، ولا سيما أسقف روما باعتباره نائب المسيح على الأرض. وأولئك الذين يخضعون لهذه السلطة التى أرستها السماء هم فقط الذين يمكنهم أن يأملوا فى أن تضمهم مدينة الرب. ولأنه كان يؤكد بشدة على المفهوم البولصى - الأوغسطينى عن الحرية، فقد أوضح تمامًا أن حرية الرجل المسيحى تتمثل فى اخضاعه لإرادته الأنانية للغايات المقدسة التى ترعاها البابوية فى العالم. والنظام العالمى الذى تتحقق فيه هذه المذاهب هو فقط النظام الذى يمكن أن نسميه نظاما عادلا وصحيحا. وأصر جريجورى على أن العدالة ليست مسألة عادة، أو تراث، أو تعود؛ وإنما هى تحقيق للمثال المسيحى كما كان هو يراه. ولا يمكن لأية مزاعم عن الاقتناع أو العادة أن تصمد فى مواجهة مذاهبه. ذلك أنه كان يذكر منتقديه بأن الرب لم يقل «أنا التقاليد» ولكنه قال «أنا الكلمة». وبحماسة استمدها من سفر الرؤيا طالب بنظام جديد صحيح يحقق المثل

المسيحية عن العدالة والحرية كما حددها هو. ولم يكن ليقبل شيئا أقل من هذا النظام المسيحى العالمى Christianitas؛ إذ لم يكن باستطاعته أن يتصالح مع الشيطان.

لقد تأثرت آراء جريجورى بروح التدين العاطفية الجديدة التى انتشرت فى القرن الحادى عشر بدرجة تقارب درجة تأثر داميانى بها. إذ أن كتاباته تحفل بالإشارات إلى العذراء وإلى المسيحيين الفقراء Pauperes christi الذين كانوا يدعون إلى مساعدتهم وكان ينشد صالحهم. وفى رأى جريجورى أن هذا الفقر الذى عانى منه المسيحيون لم يكن مسألة اقتصادية أو طبقية - أو هى مسألة اتخذت الطابع الاقتصادى أو الطبقى بمحض الصدفه. فهو يساند الفقراء، والمستضعفين، والمتواضعين، والمضطهدين من أية طبقة أو طائفة ويقف إلى جانبهم روحيا، وهو عدو للغنى، المتكبر، القوى أيا كان وأينما كان. وكراهيته لأقوى رجال أوربا ليست قائمة على أساس من الوعى الطبقى، وإنما على أساس من التعاطف النفسى والعاطفى تجاه المستضعفين والعداء تجاه سادتهم ومضطهديهم. وهكذا كان مفهوم أوغسطين عن الفقر المسيحى محاولة شاذة بالنسبة للمجتمع الذى كان قائما على أساس طبقى فى القرن الحادى عشر. وفى الوقت نفسه، فربما كانت كراهيته العنيفة لزعماء المجتمع المعاصر، وأهتمامه العاطفى الكبير بالمسيحيين الفقراء Pauperes Christi أعراضا هستيرية لجنون العظمة ودلائل على اضطرابه العصبى.

وأيا كانت جذور مفهوم جريجورى المتأجج بالعاطفة عن الفقر المسيحى، فإنه بذلك يفتح مسارًا هامًا فى فكر العصور الوسطى آنذاك. وإذا ما استثنينا عظات سان أمبرون، فإن النقد الاجتماعى والانجيل المسيحى الأجتماعى لم يكن قد ظهر بعد فى حضارة العصور الوسطى. ولم يكن هذا متوقعا فى المجتمع الزراعى الذى عرفته العصور الوسطى الباكرة، التى كانت أشكال التعبير الأدبى فيها تساند طبقات ملاك الأرض. وحين ظهرت جماعات بورجوازية جديدة فى القرن الحادى عشر، لا سيما فى شمال ايطاليا، تأثرت بالتدين العاطفى الذى جعلها تتجه إلى تغيير هذا كله. وأيا كان قصد جريجورى من تأكيده على التفوق الروحى للفقراء المسيحيين، فإن تعاليمه أدت إلى تشجيع الطبقات الطموحة المحرومة من الامتيازات فى المدن الأوربية. وحين توفر لسكان المدن الاتجاه الدينى الذى استوعب كافة أشكال الفكر فى القرن الحادى عشر إلى جانب النظرة الدينية، عبر عصيانهم الاجتماعى عن نفسه فى مذاهب ألفية وأخروية. فقد كان المحرومون من

الامتيازات هم الفقراء الذين يستحقون وراثة الأرض، أوعلى الأقل يرثون منها قدرا أكبر كثيرًا من ذلك القدر الذى كان ملاك الأراضى يسمحون لهم به. وهكذا وجد موقف جريجورى العاطفى من الفقراء المسيحيين تربة خصبة فى التمرد الاجتماعى والاتجاهات الألفية والأخروية التى تفشت فى المجتمعات الحضرية الجديدة.

والإنجيل نفسه يشجع المعنى المزدوج فى الفقر، بمعنى نقص الثروة، ونقص المتع الروحية على السواء. إذ أن المسيحيين الأوائل، أعضاء كنيسة الحواريين، تلاميذ المسيح الحقيقيين، كانوا فقراء بكل معنى الكلمة، روحيا وحرفيا. فهل كانت هذه علاقة ضرورية؟ وهل كان من الضرورى للمرء أن يحرم نفسه من المباهج الدنيوية حتى يجوز هذه الحال المثلى من فقر الروح، أى هذا التواضع الذى هو من دلائل الرحمة المقدسة؟ لقد قيض لهذا السؤال أن يصير مشكلة مضنية معذبة لكنيسة العصور الوسطى العالية. وقد أدت حماسة جريجورى للفقر المسيحى إلى التشديد على أهمية هذه المشكلة فى فكر العصور الوسطى دون أن يطرح لها حلا.

أما آخر المصلحين الجريجوريين الأربعة، فهو البابا باسكال الثانى Paschal II، وهو الوحيد من الراديكاليين الجريجوريين الذى تولى عرش البابوية بعد جريجورى السابع. وقد مضى بالنقاش شوطا أبعد من جريجورى، وقدم الأجابة الحاسمة على الرغم من أنه لم يكن مقبولا من غالبية زعماء الكنيسة فى عصره. كان باسكال راهبا فى دير فوللا مبروسا Vollambrosa بالقرب من فلورنسا، وكان هذا الدير واحدا من الأديرة التقشفية الاصلاحية. ثم دخل فى خدمة البابوية وتتلمذ على جريجورى السابع، وظل كذلك حتى آخر أيامه. بعد أن كان المد الثورى العالى قد بدأ فى روما جريجوريا قويا عارما. وبعد أن خدم كمبعوث بابوى فى أسبانيا حيث جعله تعصب المسيحيين الاييريين المشتبكين فى حرب الاسترداد أكثر تحمسا وتطهرية. وفى سنة ١٠٩٩ انتخب لاعتلاء العرش البابوى. وكانت السنوات التسع عشرة التى أمضاها على عرش البابوية تتسم بالاستمرارية العنيدة لمواصلة النضال ضد الإمبراطور الألمانى هنرى الخامس، والصراع ضد الملك الإنجليزى حول علاقات الكنيسة والدولة، كما أنه فى هذه الأثناء أسبغ تأييده على مشروع طائش فاشل لحملة صليبية ضد بيزنطة. وفى سنة ١١١١ أذهل أوربا باعلان التوصل إلى اتفاق مع الامبراطور الألمانى لإنهاء الصراع الطويل بين البابوية والإمبراطورية. ولكن عندما نشرت شروط معاهدة السلام ثار الكرادلة وغضبوا فأجبروه على نقض المعاهدة.

لقد كان حل باسكال الثانى للنزاع حول العلاقات بين الكنيسة والدولة بسيطًا وثوريًا فى آن واحد. فبما أن أصول النزاع تكمن فى مسألة الاختصاصات النسبية لكل من المملكة regnum والكنيسة Sacerdotium فإنه اقترح على الامبراطور أن يسلم الكنسيون الألمان للتاج الامبراطورى كافة أملاكهم ومناصبهم العلمانية لكى يجعلوا من أنفسهم كنيسة روحانية تمامًا. وفى المقابل وعده هنرى الخامس بعدم التدخل فى شئون الاساقفة ومقدمى الأديرة الألمان؛ وكان طبيعيًا أن يعد الامبراطور المبتهج بأن يفعل هذا نظرًا إلى ذلك القدر الهائل من الثورة العقارية والمناصب العامة التى قدمها له باسكال فى اقتراحه.

وقد فشل المؤرخون بشكل عام فى إدراك مغزى التنازل الذى قدمه باسكال. ولم يكن هذا تصرفًا غير محسوب من رجل غريب الأطوار، كما ظن البعض، ولم يكن نتيجة سبب قهرى من جانب الأمبراطور كما ادعى البلاط البابوى فيما بعد وهو ينقض المعاهدة. فقد كانت معاهدة سنة ١١١١ متوافقة تمامًا مع موقف باسكال الايديولوجى، الذى كان بدوره نتاجا للجريجورية الثورية. وكما قطعت الجماعات الديرية التقشفية الجديدة على نفسها عهدًا بالفقر تقليدًا لكنيسة الحواريين، كذلك تحرك باسكال، الذى كان نتاجًا لهذه الحركة، فى اتجاه فكر الفقر الحوارى للكنيسة كلها، كما تحرك فى اتجاه مذهب يقول بكنيسة روحية تمامًا و«فقيرة» بكل معنى الكلمة. ويمكن القول بأن هذا كان تطورًا منطقيًا نابعًا من ترحيب جريجورى السابع بالفقر المسيحى.

ويظهر المذهب القائل بفقر الكنيسة مثل الحواريين لأول مرة فى سياسة آخر البابوات الجريجوريين. ولأن هذا المذهب قد لاقى الرفض من جانب بابوية العصور الوسطى العالية، كما سبب الرعب والهلع لرجال الكنيسة الأثرياء فى غرب أوربا، فقد وجد ترحيبًا من الحركات الهرطقية الشعبية فى القرون ١٢، ١٣، ١٤. وفى أواخر القرن الثالث عشر اعتنقه الجناح الثورى من الفرنسسكان، والذى كان يستمد تراثه الدينى من نفس حركة الزهد التى سرت فى شمال إيطاليا فى أواخر القرن الحادى عشر والتى كان باسكال الثانى من ثمارها. لقد أدانت البابوية مذهب الفقر الحوارى باعتباره هرطقة فى سنة ١٣٢٣، ولكن هذا المذهب ظل قائمًا فى الوجود على مدى عشرات من السنين بعد ذلك ليكون مصدرًا للنزاع والفوضى فى الحياة الكنسية فى العصور الوسطى. وفى طيات الأفكار العالمية الغامضة التى طرحتها الحركات الهرطقية الشعبية فى العصور الوسطى العالية نجد مذهب الفقر الحوارى

يرتبط تمامًا بالانجيل الاجتماعي الألفي الذى نجد جذورًا له هـو الآخر فى تعـاليم جريجورى السابع.

وينبغى أن ننظر إلى نتائج الإصلاح الجريجورى الفكرية باعتبارها نتائج غاية فى التعقيـد وعدم التجـانس، لقد روج الجـريجـوريـون للمـذاهب التى شـادت السلطة البابوية، والتنظيم المركزى للكنيسة، وسلطة المنصب الكنسى - كما أنهم قوضوها فى الوقت نفسه، ذلك أن المذاهب القائلة بالسلطة المطلقة وعصمـة البابـوية، وخضـوع الملكية للكنيسة ، كلها مذاهب جريجورية. إلاّ أنه من تعاليم المصلحين الجريجوريـين أيضًا نبعت تلك الأفكار التى لم تلبث أن لعبت دورًا هامًّا فى تقويض النظام العـالمى فى العصور الوسطى: أى الفردية الدينية، والمذهب الـدوناتى، والإنجيـل الاجتماعى الألفى، ومذهب الفقر الرسولى للكنيسة.

ولم يكن الجـريجوريـون يحتكرون لأنفسهم سـاحة النقـاش العام. فعـلى العكس كانت مناقشـاتهم حول طبيعة النظام المسيحى العـالمى تستدعى مختلف التعليقـات، والانتقـادات، والمقالات التى تعكس كـل ظل من الـرأى تقريبًـا. ومن الأمور ذات الدلالة، بالنسبة للمشاعر الجارفة التى احياها الإصلاح الجريجورى، وبالنسبة لازدياد حركة التعليم فى القرن الحادى عشر، أن ما خلفته لنا تلك الفترة من مؤلفات حول علاقة الدولة والكنيسة تملأ ما يزيد على مائتى ألف صفحة بمقاييس الطباعة الحـديثة. وليس من قبيل المبالغة أن نقول أنه فى سنة ١١٠٠ تقريبًا كان كل راهب فى غرب أوربا يؤلف كتيبًا عن الكنيسة والدولة.

ويمكن أن نأخذ فى اعتبارنا ثلاثة تعبيرات نمطية تدلنا على طبيعة الانتقادات التى وجهت ضد الجريجوريين. فبـادئ ذى بدء كـان ثمة مـوقف نـاتـج عن التركيـز على تراث العصور الوسطى الباكرة حول الملكية الثيوقراطية، مؤكدًا على أن الرب هـو الذى عين الملك «وبفضل الرحمة الالهية فهو بمثابة الرب» عـلى حد تعبـير القسيس الانجليـزى المجهـول صـاحب المقـالات التى تحمـل عنـوان «المؤلف المجهـول من يـورك» فى سنة ١١٠٤. وثـانيًا كـان هناك المـوقف الكلونى المحافظ الـذى تمثل فى «مقـال فى السـلطة الملكية والكنيسـة» الـذى كتبـه هـوف راهب فليـرى Hugh de Fleury وفليرى هو الدير الفـرنسى الملكى المتحالف مـع دير كلونى. ويشن هـوف هجومًا مباشرًا على أفكار جريجورى حول الخاصية الأخلاقيـة للملكية، ويخلص إلى أن الملكية يجب أن تستمر فى تفوقها وسمـوها عـلى الكنيسة فى سبيـل إقامـة نظام صحيح فى المجتمع. أما الموقف الأخير فهو من أهم المـواقف وأكثرهـا إثارة فى تلك

الفترة، ذلك هو موقف القانونى الكنسى الكبير ايفو Ivo اسقف شارتز Chartres. فقد عبر هذا العالم الحكيم النابه عن شكوكه فى أن النظام العالمى السائد يتناقض حقًا مع القانون الكنسى ومتطلبات عقيدة الكنيسة. وقال أنه حتى لو كان الأمر كذلك فإن القيمة الأخلاقية للعادة الاجتماعية يجب أن تعلو حتى فوق ضرورات القانون الكنسى واللاهوت المكتوبة. فبما أن النظام السائد يحظى بمثل هذا التأييد الواسع من جانب العلمانيين، بل ومن جانب رجال الكنيسة، فإنه تستحيل إزالته دون حدوث صدع وانشقاق فى المجتمع. وقد خلص ايفو إلى أنه من الأفضل للاصلاحيين أن يقنعوا بالاعتراض المتحفظ وأن يأملوا فى حدوث إصلاح بطىء. وعلى أية حال فإن المنظرين للبابوية الجريجورية لم يكن لديهم أى استعداد للاستماع إلى الآراء المعتدلة التى كان ايفو اسقف شارتر ينادى بها، كما أنهم كانوا يرفضون الاستماع إلى وجهات نظر من يمثلون ردود الفعل الملكية، أو الاحتجاجات المريرة التى جهر بها الكلونيون المحافظون.

كان كثيرون من رجال الكنيسة المعاصرين، ممن امتازوا بالإخلاص والتفانى، لا يرون فى الجريجوريين خطأ مذهبيًا كبيرًا، وإنما رأوا فيهم قومًا متهورين، ساذجين، محدودى الأفق. وفى البلاد التى كانت الملكية فيها قوية مثل إنجلترا النورمانية، والامبراطورية الألمانية، كان كبار رجال الكنيسة يحترمون الملكية، كما ظل المتعلمون منهم يخدمون الملكية كمستشارين ووزراء. أما الجريجوريون، فإنهم على النقيض من أمثال هؤلاء الكنسيين، كانوا بالفعل ساذجين وضيقى الأفق. وكلهم تقريبًا وفدوا من اللورين وشمال إيطاليا حيث كانت السلطة الملكية ضعيفة وغير منظمة، وحيث لم يكن بوسع أحد من الرهبان أن يحترم الملكية. كذلك لم تتح الفرصة لأى منهم للعمل فى بلاط ملكى أو أن يتعرف على شخصية مثل هنرى الثالث أو وليم الفاتح، أو أن يرى من الداخل تلك المشكلات الضخمة التى كانت تواجه الحكومة فى القرن الحادى عشر. وبالنسبة للجريجوريين كانت الملكية فكرة يجب دراستها عند أوغسطين أو جيلاسيوس؛ فهى بالنسبة لهم لم تكن حقيقة فظة من حقائق الحياة اليومية، كما أنها لم تكن فكرة جيدة (كما كانت بالنسبة لكبار الاكليروس فى إنجلترا وألمانيا). لقد كان الجريجوريون متعلمين، ومخلصين، وشجعان، بل وكانوا رجالاً يتألقون فى سماء الفكر، ولكنهم كانوا يفتقرون كثيرًا إلى الحكمة والاعتدال اللذين توفرهما سنوات التقارب مع الملكية والسلطة – وهى نوع من الحكمة لم يكن ممكنًا أن تتوفر لهم بقراءة الكتب فى أدب آباء الكنيسة، أو مجموعات القانون

الكنسى، أو بالإخلاص فى الحياة الديرية، أو حتى بمتابعة المصادر الفكرية الثرية لحركة التدين والجدل الجديد.

٣ - النزاع الألمانى حول التقليد العلمانى:

فى سنة ١٠٧٥ كان الإمبراطور الألمانى هو أقوى حاكم فى أوربا، أو على الأقل فى مناطق شرق نورماندى. ومع هذا فإن «الشيطان المقدس»، جريجورى السابع، الذى كان قد انطلق فى سبيل تطبيق برنامجه عن العدالة والحرية، لم يتورع عن أن يطلب من الملك الألمانى فورا أن يوقف نظام التقليد العلمانى الذى كان يتيح له فرصة التحكم فى تعيين كبار رجال الكنيسة فى مملكته، وهدد البابا بخلع الامبراطور إذا لم يمتثل للمرسوم الذى أصدره. وكان هجوم جريجورى على الأسس التنظيمية للسلطة الامبراطورية فى وقت حرج بالنسبة للامبراطورية؛ فقد عجل بنشوب صراع امتد على مدى خمسين سنة، وهو صراع يرى المؤرخون الألمان أنه حسم مصير ألمانيا.

كان هنرى الرابع قد اعتلى عرش الامبراطورية عقب وفاة أبيه الباكرة فى سنة ١٠٥٦. فقد كانت السياسة المركزية العدوانية التى انتهجها هنرى الثالث قد اخافت النبلاء الألمان، وبذلك صمموا على انتهاز فرصة النكسة التى حلت بالبيت الإمبراطورى لكى يحدوا من حجم سلطة التاج. إذ سار هنرى على الخطوط التى كان أباطرة أسرة أوتو قد أرسوها فى القرن العاشر، فإنه بنى سلطته على أساس التحكم فى موارد الكنيسة والسيطرة على رجالها، استنادًا إلى مذهب الملكية الثيوقراطية والتقليد العلمانى، ونظام الكنائس الامتلاكية، والوصاية على الأديرة الكبرى فى مملكته. كذلك أفاد هنرى الثالث من نظام الفرسان - الأقنان ministeriales لكى يقيم الحاميات فى الحصون الكثيرة التى بناها فى شتى أنحاء المملكة ولا سيما فى دوقية سكسونيا الشمالية، التى واصل نبلاؤها وفلاحوها إظهار ميولهم الانفصالية القوية. ويبدو أنه كان فى نية هنرى أن يضم الدوقية السكسونية المشاكسة إلى أملاك التاج، ويضيف هذا الأقليم إلى دوقية فرنكونيا لتكون أملاكًا شاسعةً للتاج. وكان تحقيق هذه السياسة هو الذى سيضع الملكية الألمانية فى موقف الهيمنة والسيطرة على النبلاء الألمان، مما يعتبر أساسًا لبناء السلطة الملكية فى ألمانيا، وهو ما كان أوتو الأول قد بدأه فى منتصف القرن العاشر.

وصمم النبلاء الألمان بقيادة السكسون المشاغبين، على الإفادة من الموت المفاجئ

للإمبراطور العظيم هنرى الثالث سنة ١٠٥٦ ووجود قاصر على العرش. وتمثلت النتيجة فى سنوات تسع من العصيان والحرب الأهلية فى ألمانيا، وفى خلال هذه السنوات التسع كشفت الدوقيات عن الاتجاهات والميول الانفصالية التقليدية. ولكن الكنيسة الألمانية، حتى فى سكسونيا، ظلت على ولائها للملكية وحفظت العرش للشاب هنرى الرابع. وهكذا تأكد من جديد ذلك التحالف الحكيم الذى كان أوتو الأول قد عقده مع الكنيسة الألمانية.

وحين صار هنرى الرابع ملكًا بالفعل سنة ١٠٦٥ تصدى للاتجاهات الانفصالية فورًا، وانطلق فى سبيل إتمام العمل الذى كان أبوه قد بدأه. وربما كان هنرى أقدر حكام ألمانيا فى العصور الوسطى وأكثرهم حكمة. فلاشك فى أن أحدًا غيره من الملوك لم يظهر هذا القدر من الحيوية الماكرة، والعزم الذى لا يلين على تطوير السلطة الملكية. كان هنرى يعتقد أن دوقية سكسونيا هى مفتاح المشكلة، وهناك واصل سياسة أبيه فى بناء القلاع، كما انتهج سياسة لا تكتفى بتجريد النبلاء من امتيازات الحكم الذاتى التى كانوا يتمتعون بها، وإنما تهدف أيضًا إلى تحويل جماهير الفلاحين الأحرار إلى أقنان يعملون فى الضياع التى تعتمد بشكل كلى على التاج. وكانت النتيجة الحتمية لذلك نشوب عصيان كبير آخر فى ألمانيا، لقى فيه النبلاء والفلاحون الثائرون العون من كافة الارستقراطيين المنشقين فى سائر أنحاء المملكة، بل ومن بعض الأساقفة الغاضبين أيضًا. وعلى أية حال، لم يكن الصراع متكافئًا، لأن الغالبية الساحقة من الأساقفة كانت تقف إلى جانب الملك، ومعهم الفرسان - الأقنان الملكيون، وكثيرون من صغار النبلاء فضلًا عن الأديرة الغنية الخاضعة للسلطة الملكية، والطبقات الجديدة فى مدن الراين. وبحلول سنة ١٠٧٥ كان هنرى الرابع قد حقق نصرًا مؤزرًا كاملًا. فقد تم اخضاع قادة الأرستقراطيين الثائرين، كما خسر الفلاحون السكسون اعدادًا كبيرة من القتلى فى ساحة المعارك وانتابهم إحساس بأن النبلاء قد خانوهم. وبدا الطريق آنذاك مفتوحًا لبناء دولة موحدة وقوية فى ألمانيا، تماثل درجة السلطة المركزية فى الأراضى الخاضعة لحكم دوق نورماندى، وتعتبر ارهاصًا للملكية الألمانية فى القرن الثالث عشر.

عند هذه النقطة الحركة تلقى الملك الألمانى المرسوم البابوى ضد التقليد العلمانى مع التهديد بعزله إذا لم يظهر الطاعة فورًا. ولم يكن هنرى بغافل عن التغير الكبير الذى كان يجرى فى روما. فخلال الفترة التى كان فيها تحت الوصاية جرده المرسوم الانتخابى البابوى من حق التحكم فى الانتخابات البابوية، وهو الحق الذى كان

أسلافه يتمتعون به على مدى قرن من الزمان. ولكنه إذ كان مشغولاً بالمشكلات الداخلية الضاغطة، ترك الأمور فى إيطاليا تأخذ مجراها على الأقل حتى يتمكن أن يوليها كامل أهتمامه. ويبدو أن موقف هنرى الطبيعى من روما كان موقفًا حذرًا معتدلاً، وربما لم يكن ليتدخل فى الاستقلال الجديد الذى نعمت به البابوية لو تركته وشأنه. ولكن السياسة العدوانية التى انتهجها جريجورى السابع منذ بداية بابويته جعلت من المستحيل على هنرى أن يتجنب خوض الصراع ضد روما. هذا النزاع الأول بين البابا والإمبراطور كان مسألة بسيطة نسبيًا، بيد أنه كان بادرة لصراع أعمق كامن تحت السطح. فبعد أن ارتقى هيلدبراند عرش البابوية بقليل، صار كرسى اسقفية مدينة ميلانو شاغرًا، وأخذ كل من هنرى وجريجورى يناور ليضمن فوز مرشحه. واعتبر جريجورى هذا دليلاً على أن الملك الألمانى لم يتخل عن مزاعمه فى السيطرة على شئون إيطاليا، وربما كان هذا هو السبب الذى دفع جريجورى إلى تصعيد هجومه على الأسس التنظيمية للسلطة الامبراطورية - أى تحالفها مع الكنيسة الألمانية - فوجه إنذارًا بابويًا نهائيًا سنة ١٠٧٥. ولأن هنرى كان منتشيًا بانتصاره الكبير على النبلاء، فقد قرر أن ينتهج أقوى سياسة ممكنة فى التصدى لمطالب جريجورى، ووجد تأييدًا حماسيًا لسياسته بين رجال الكنيسة الألمان. ذلك أنهم كانوا منذ زمن طويل قد تنبهوا أكثر من الملك للنهج الثورى الذى انتهجته البابوية فى عهد هيلدبراند، ولم تكن بهم أدنى رغبة فى التخلى عن نظام العلاقات السائد بين الكنيسة والدولة فى ألمانيا.

ومن ثم أعد العلماء الكنسيون فى البلاط خطابا لكى يرسل فى سنة ١٠٧٦ باسم الملك إلى روما ردا على المرسوم البابوى ضد التقليد العلمانى، وهذا الخطاب يلعن «هيلدبراند الذى لم يعد بابا حاليا، وإنما راهب مزيف» بأقسى ما يمكن من الألفاظ. كان خطاب هنرى واحدا من أبرز الأمثلة على البلاغة اللاتينية فى العصور الوسطى، وهو يعكس درجة تعليم المجلس الملكى ومهارة أعضائه الأدبية. ولكنه لم يكن أكثر من دفاع عن النظام العالمى السائد، وإعلان الحرب على البابا الذى نادى بتقويض هذا النظام الخير. فقد قال هنرى للبابا جريجورى أن أداءه لوظيفته البابوية قد جلب الفوضى والفساد على الكنيسة بالدرجة التى جعلته يجرؤ على أن يعصى السلطة الملكية التى تلقاها هنرى من الرب، وأنه تجرأ على أن يهدد بخلع هنرى من مملكته التى عينه الرب على عرشها. وزعم أن جريجورى قد اغتصب العرش الرسولى، فقد مارس العنف تحت ستار الدين مخالفا بذلك تعاليم القديس بطرس. وخلص الخطاب الى أن جريجورى مأمور من هنرى، الملك بفضل الرب،

ومن سائر أساقفة الامبراطورية بأن ينزل عن عرش القديس بطرس. وبعض النسخ تضيف اللعنة الأبدية على البابا.

لقد كان خطاب هنرى الرابع جريجورى السابع صرخة يائسة من جانب ملكية العصور الوسطى لتبرير كيانها، وهى الملكية التى وصلت إلى ذروتها على يد الأسرة السالية فى عصر هنرى الثالث وابنه. ولكن يبدو أن جريجورى السابع كان يتوقع مثل هذه الأجابة. فلم يخش الجيش الامبراطورى، لأن البابوية كانت قد وجدت فى السنوات العشرين السابقة حلفاء أقوياء لها فى ايطاليا يوازنون القوة ضد الملك الألمانى الكبير - هؤلاء هم الحكام النورمان فى جنوب ايطاليا وصقلية. لقد اتخذت البابوية فى بداية الأمر موقفا عدائيا من الغزو النورمانى لمناطق الجنوب الايطالى، ولكن مع نهاية خمسينيات القرن الحادى عشر كان البلاط البابوى قد أدرك أن النورمان يمكن أن يستخدموا كقوة فى مواجهة النبلاء النورمان المشاغبين، ثم ضد الامبراطور الألمانى الذى كانت مزاعمه حول السلطة على ايطاليا تلقى معارضة النورمان والبابوية على السواء. وكان الحكام النورمان - الايطاليون يحتاجون بدورهم إلى الموافقة البابوية لكى تضفى على حكمهم سمة من الشرعية فى امارات الجنوب الايطالى التى كان يحكمها من قبل خليط من الأمراء المسلمين، والبيزنطيين، واللاتين. وكان من بواعث سرور البابوية أن تمنح اعترافها للحكام النورمان فى سبيل تدعيم التحالف معهم لأن جيوشهم كانت تمثل الدعم العسكرى الضرورى الذى كانت البابوية تحتاج إليه. وبالأضافة إلى هذا التأييد الجنوبى كان بوسع جريجورى أن ينتظر المساعدة من الشمال من ماتيلدا Matilda كونتيه توسكانيا الثرية القوية، وكانت أرملة ترتبط مع جريجورى نفسه بعلاقة صداقة. وتعتبر ماتيلدا أول مثال لطراز السيدة الأرستقراطية المستقلة ذات السلطة والمكانة الكبيرة، وقد قيض لمثل هذا الطراز من السيدات أن تلعبن دور هاما فى السياسة والمجتمع فى العصور الوسطى العالية. وعلى الرغم من أن ماتيلدا كانت تمت بصلة قرابة بعيدة للامبراطور الألمانى، فان جريجورى كان يشعر أنه يستطيع الاعتماد عليها فى حمايته من غضب هنرى الرابع اذا ما جاءت المناسبة.

ولما كان جريجورى يتصرف بسرعة وتصميم واضح، فقد بادر بخلع هنرى فور تسلمه لخطابه المتمرد المهين، وأرسل العملاء البابويين الى المانيا لكى يحولوا رماد العصيان الذى لم يكد ينطفئ إلى نار جديدة للحرب الأهلية، وبهذا وجدت كل العناصر المناوئة فى ألمانيا ذريعة لم يسبق لها مثيل لمهاجمة الملكية، وهكذا اكتسب

العصيان، الذى ثار لأسباب ذاتية، مسحة مقدسة. ويبدو على أية حال أنه كان بمقدور هنرى الرابع أن يصمد لهذه العاصفة لو لم يكن جريجورى السابع قد اتخذ حيطته لمنع استمرار التأييد التقليدى من جانب كبار الكنسيين الألمان للتاج.

فقد علم الأساقفة ومقدمو الأديرة عن طريق العملاء البابويين ومن خلال الخطابات التى وصلتهم من روما مباشرة أنه لم يعد ثمة ما يدعوهم إلى الاعتراف بهنرى الرابع ملكا عليهم بعد أن صدر ضده قرار الحرمان. وكان الحرمان ما يزال سلاحًا قويًا للغاية فى الترسانة الروحية للبابوية؛ اذ كانت أوربا ما تزال بعيدة عن تدهور هذا السلاح بسبب كثرة استخدامه. فضلا عن أنه كان هناك احتمال حقيقى بأن ينتصر جريجورى فى صراعه ضد الملك الألمانى، وقد تردد رجال الكنيسة فى ألمانيا بدافع الخوف على أمنهم الشخصى، فى أن يغامروا بوظائفهم ومكانتهم اذا ما وقفوا صراحة إلى جانب هنرى الرابع. وهكذا تمثل الاثر المباشر للمرسوم البابوى بخلع الامبراطور فى الانهيار المروع للسلطة الملكية. ولأن ثلثى الجنود على الأقل فى جيش هنرى كانوا يجندون من أراضى الكنيسة، فانه فقد الجزء الأكبر من قوته العسكرية دونما ضربة واحدة. وبنهاية سنة ١٠٧٦ وجد الملك نفسه يكاد يكون معزولا، لأن رجال الكنيسة الذين تملكهم الخوف والوجل سحبوا تأييدهم للبيت السالى. وابتهج النبلاء لهذا الانقلاب غير المتوقع فى حظهم، فأعادوا احياء المبدأ الانتخابى القديم فى الملكية الألمانية استجابة لاقتراح من البابا، وبدأوا بالفعل فى عملية انتخاب ملك جديد من خارج الأسرة السالية.

واستطاع الموظفون الكنسيون العاملون فى البلاط أن يقنعوا الملك أن المخرج الوحيد هو أن يستسلم لجريجورى ويحصل على العفو البابوى عن أفعاله الخاطئة حتى يمكنه أن ينقذ عرشه. فعقد العزم على أن يسافر إلى أيطاليا بنفسه لكى يطلب الغفران من البابا. وكان من الضرورى لهنرى أن يفعل هذا على وجه السرعة، لأن جريجورى كان قد أعلن عن نيته بالذهاب إلى ألمانيا لكى يرأس مجلس النبلاء الألمان الذى كان سيجرد هنرى من عرشه رسميا ويختار ملكا جديدا.

وثمة مؤرخ ألمانى معاصر من الرهبان الموالين للملك أمدنا برواية ربما يغلفها الخيال تحكى كيف أن هنرى الرابع اليائس قد اندفع جنوبا، وليس بصحبته سوى مجموعة من الخدم، فى أرض تغص بالأعداء. وفى هذا الوقت، كان جريجورى مسافرا بطريقة أكثر تأنيا واحتفالا بالمظاهر، فى طريقة من روما إلى ألمانيا قبل أن يطلب الملك مقابلته. وقد كسب هنرى هذا السباق المليودرامى الذى شد انتباه

أوربا بأسرها. فقد لقى البابا عند قلعة كانوسا Canossa التى كانت من أملاك ماتيلدا كونتيسة توسكانيا فى ايطاليا، وحيث كان جريجورى قد حل ضيفا على الكونتيسة.

وتشكل الحوادث التى جرت فى كانوسا شتاء سنة ١٠٧٧ واحدًا من أكبر المواقف الدرامية فى التاريخ الأوربى. إذ يضيف لنا المؤرخ الملكى المعاصر، بقدر من المبالغة المحمودة، كيف وقف هنرى فى الجليد أياما ثلاثة حتى أعلن البابا فى النهاية عن استعداده لمقابلته، وقبول توسلاته التائبة بالعفو والغفران. والواقع أن الحوادث التى جرت فى كانوسا لم تكن دراما عالمية فقط، ولكنها كانت أيضا مواجهة سياسية عصيبة كانت لها نتائجها الكبيرة على التطورات التالية فى النزاع حول التقليد العلمانى مع ألمانيا، كما كان كل من الامبراطور والبابا يعلم عن يقين. فقد كان هنرى فى حاجة إلى الغفران البابوى لكى يحتفظ بعرشه، ولم يكن جريجورى على استعداد لتقديم هذه المنحة فى اللحظة التى شهدت انهيار سلطة هنرى، وحين كان البابا فى طريقه لحضور الاجتماع الذى سيجرى فيه انتخاب ملك ألمانى جديد توافق عليه البابوية. وبحكم تقاليد الكنيسة وقانونها، على أية حال، لم يكن باستطاعة أى قسيس، ناهيك عن أن يكون هو نائب المسيح على الأرض، أن يرفض توبة مخطىء صادق التوبة ومعترف بخطيئته. وقد راود الشك جريجورى كثيرا، وله عذره فى ذلك، حول مدى صدق توبة هنرى، بيد أنه كان من الصعب عليه أن يعلن ذلك على الملأ بسبب ما أبداه هنرى علانية من التوبة وعذاب الضمير. وبالتالى، ظل البابا يتجاهل طلب الامبراطور بمقابلته ثلاثة أيام. ثم تدخلت ماتيلدا كونتيسة توسكانيا لصالح قريبها؛ ذلك أنه لم يكن هناك حاكم أو سيد كبير، خارج ألمانيا على الأقل، يستمتع بالتفرج على استمرار التحقير لواحد من أكبر ملوك العالم المسيحى.

وربما حتى وساطة ماتيلدا لم تكن لتحرك جريجورى فى لحظة انتصاره. فقد كان ظهور هوف رئيس دير كلونى فى كانوسا فى وقت غير مناسب لجريجورى، وتدخله الدائب لصالح الامبراطور هو فقط الذى أرغم جريجورى على الاستجابة. اذ أن هوف كان هو رجل الكنيسة الذى يحظى بأكبر قدر من الاحترام والحب فى زمانه، وكان هو وهيلدبراند يكرهان بعضهما على الدوام، فضلا عن أن وجهة النظر العالمية الجريجورية كانت تصطدم بشدة مع وجهة النظر العالمية الكلونية. ولكن جريجورى لم يكن ليجرؤ على تجاهل نصيحة رئيس الدير المبجل المقدس. ولو فعل جريجورى

هذا لعرض مركزه فى أوربا للخطر اذ أنه كان يدرك تماما أن رؤوس أوربا المتوجة تتطلع فى هلع إلى الأحداث الجديدة التى تجرى فى كانوسا. كما كان يعلم أن المعارضة النشطة من جانب الراهب الكلونى المعمر تكفى لتحويل الرأى العام ضده ومؤازرة ملوك وحكام أوربا الآخرين للملكية السالية المقهورة. وعليه فقد سمح جريجورى فى نهاية الأمر بمقابلة هنرى، واستمع إلى اعترافه، ومنحه الغفران، ثم جعله يقطع على نفسه عهدا باطاعة المراسيم البابوية وأعاده إلى عرشه.

كان رأى البابا، والنبلاء الألمان الخائبين، أنه لم تعد هناك حاجة لانتخاب ملك جديد. فقد تخلى البابا عن رحلته عبر جبال الألب، وأرسل خطابا تفوح منه رائحة النصر إلى النبلاء الألمان يخبرهم بالأحداث التى جرت فى كانوسا والسلام الذى عقده مع الملك التائب الذى أقسم أن يكون خادما مخلصا للبابوية. ولكن هنرى هو الآخر غادر كانوسا فى حالة انتصار وهو فى الطريق الى مملكته. فقد أنقذ عرشه وسنح له الوقت لاعادة بناء سلطته. ومن غير المحتمل أنه كان ينوى الحفاظ على القسم الذى أقسمه فى كانوسا، ففى خلال سنة واحدة كشف عن نواياه فخلعه البابا عن عرشه مرة أخرى. بيد أن هنرى لم يرجع أبدا إلى الموقف اليائس الذى وجد نفسه فيه عند نهاية سنة ١٠٧٦، والحقيقة أنه فى خلال السنوات الخمسين التى استغرقها النزاع حول التقليد العلمانى، لم يحدث أبدا أن أقتربت البابوية من نصرها النهائى مثلما حدث فى صبيحة ذلك اليوم الذى شن فيه جريجورى السابع هجومه الأول على الملكية الألمانية. فبعد كانوسا أعاد بعض رجال الكنيسة الألمان التفكير فى مواقفهم ثم عادوا إلى الوقوف فى صف البيت السالى. وعلى سبيل المثال، تولى رئيس دير فولدا الكبير، الذى أسسه سان بونيفاس رئاسة المجلس القضائى الملكى فى السنوات الأخيرة من عهد هنرى الرابع. واستطاع الملك الألمانى أن يستعيد مركزه فى الحرب الطويلة المريرة ضد النبلاء الألمان بفضل مساعدة بعض رجال الكنيسة والأقنان الملكيين فضلا عن الجيوش التى تم تجهيزها من الأراضى المملوكة للتاج.وفى سنة ١٠٨٥ كان هنرى قويا بالقدر الذى يكفى للانتقام، فطرد البابا من روما ليعيش لاجئا بين حلفائه النورمان فى جنوب إيطاليا حتى موته. واتسمت السنوات الأخيرة من حياة هنرى الرابع بالمرارة الناجمة عن عصيان ابنه الذى انضم الى النبلاء الألمان ضده، بيد أن هذه كانت مسألة عائلية وشخصية فى المقام الأول. لأن هنرى الخامس واصل الحرب ضد البابوية وحلفائها فى ألمانيا فور ارتقائه للعرش الألمانى سنة ١١٠٦.

وقد ناقش كثيرون ممن عاصروا هذه الأحداث، ومن الكتاب المحدثين على

السواء، مسألة من هو الذى ربح أكثر من مواجهة كانوسا الدرامية، البابا أم الامبراطور؟ كان واضحا أن كلا من الفريقين قد ربح شيئا وخسر شيئا آخر، وأن أيا منهما لم يحقق النصر الكامل. لقد أعادت كانوسا التاج الألمانى إلى هنرى، ولكن بالنظر إلى خضوعه المهين أمام البابا، تكون كانوسا قد وجهت ضربة قاضية إلى ايديولوجية الملكية الثيوقراطية التى كانت الأسرة السالية تعول عليها كثيرا. فضلا عن أن هنرى، وقد أجبر على طلب الغفران البابوى، قد دعم المزاعم الجريجورية حول حق البابوية فى محاكمة وعزل أكبر الحكام فى أوربا. ومن المؤكد أن جريجورى قد تسبب فى التهليل بأن السلطة الأخلاقية للبابوية قد تبدت واضحة حين تم إجبار أعظم حكام الغرب على أن يركع تائبا عند قدمى البابا. لقد كانت كانوسا تعنى أن أسقف روما، الذى ظل يلعب دورا هاما فى شئون أوربا السياسية على مدى قرنين من الزمان، قد صار فى ذلك الحين شخصا محوريا تدور حوله شئون الدول الأوربية.

وعلى أية حال، فان انتصار جريجورى لم يكن مطلقا. ذلك أن كانوسا اظهرت بذور الشك حول مقاصد البابوية ومستواها الأخلاقى، وهى البذور التى نمت سريعا فى القرن التالى. فقد اتخذ ملوك أوربا حيطتهم كما أجبروا مرغمين على أن يعيدوا النظر مليا فى علاقتهم بالكنيسة. كما أن كانوسا قضت على التوازن الدولى الذى عرفته أوربا القرن الحادى عشر. بل أن رجال الكنيسة المخلصين الواعين تساءلوا آنذاك عن السبب الذى يجعل حاكما مخلصا وقديرا مثل هنرى يقف مثل هذا الموقف المهين. وفى مناقشة ما جرى فى كانوسا، بعد ذلك بمائة سنة رفض المؤرخ أوتو الفريزى، الذى كان أسقفا ملكيا، أن يقرر أن أحد الجانبين كان على خطأ أو على صواب بشكل مطلق. فقد أحس بأن جريجورى قد تطرف فى خصومته، وتشكك فى فطنة هذا البابا وذكائه، ومن ثم تشكك فى أن يكون حسن النية. وهكذا كان لاستعراض القوة البابوية فى كانوسا تأثير معقد وبعيد المدى على الوعى الأخلاقى فى مجتمع العصور الوسطى، فقد كان مؤشرا على نهضة الزعامة البابوية فى أوربا، كما أنه فى الوقت نفسه حرك سلسلة طويلة من المنازعات والتناقضات التى انتهت بعد قرنين وربع قرن فى مدينة ايطالية أخرى صغيرة بالقضاء على بابوية العصور الوسطى.

وبعد كانوسا ظل جريجورى وهنرى يتحاربان بكراهية مقيتة، واستخدما كافة الموارد المعنوية والمادية التى استطاعا تعبئتها. فقد أعلن البابا مرة أخرى عزل

الامبراطور، وانضم الى الأمراء المتمردين لتنصيب امبراطور غيره. وبالمثل وجد هنرى أسقفا من شمال ايطاليا على استعداد للمغامرة باعتلاء العرش البابوى بدلا من جريجورى. هذه المناورات كان لها تأثير ضئيل، وربما لم يكن لها تأثير على الاطلاق، فقد طال أمد الصراع حول التقليد العلمانى. وبعد موت جريجورى سنة ١٠٨٥، وفى بابوية الراهب الكلونى الاصلاحى إربان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩) خاصة، بدأ عزم البابوية يخور. وبينما أكد إربان ولاءه لسياسة جريجورى رسميا، أخذ يبحث عن مخرج من حرب الانهاك التى تورطت فيها البابوية. وحاول أن يوحد أوربا خلف البابا من خلال الدعوة الى الحملة الصليبية الأولى. وقد اتضح أن اربان قد تخلى عن ايديولوجية جريجورى حين منح الحكام النورمان فى انجلترا وجنوب ايطاليا حق السيادة على الكنائس الموجودة فى أراضيهم، وهى نفس السيادة التى كان إربان قد أدانها فى ألمانيا. ولكن إنهاء النزاع مع ألمانيا حول التقليد العلمانى كان قد بات أمرا بالغ الصعوبة، لأنه كان يتطلب انقاذ ماء وجه كل من الطرفين. ولم يكن بوسع إربان أن يجد مخرجا من هذا الطريق المسدود. ولا حاجة بنا إلى القول بأن أحدا ممن كانوا يؤيدون الامبراطور الألمانى لم ينضم إلى الحملة الصليبية الأولى.

وقام باسكال الثانى، خليفة أربان، بتجديد الصراع، ولكن بعد عشر سنوات كان هذا الجريجورى العنيد يرغب فى أن يوقف هذا الصراع الذى بدا وكأنه بلا نهاية. وابتهج هنرى الخامس بالحل الجذرى الذى إقترحه. ولكن أحدا سواه لم يوافق عليه كما رأينا. وفى أخريات العقد الثانى عشر كان جيل جديد من الكرادلة يسيطر على الحكومة البابوية. وقد حكمت تجاربهم القانونية والإدارية بأن تكون نظرتهم للعالم معبرة عن وجهة نظر البيروقراطيين الحذرين وليس عن وجهة نظر المفكرين الجسورين. لقد بدت سياسة جريجورى المتطرفة أمرا خطيرا لا موجب له فى نظر أولئك الرجال الجدد. فقد رأوا أن السلطة البابوية يمكن أن تتدعم من خلال الوسائل التنظيمية للمركزية الكنسية فى مجال القانون والإدارة، بدلا من خوض حرب يائسة ضد حكام أوربا. وكان الزعماء الجدد فى روما يوافقون بشكل عام على أهداف جريجورى النهائية، ولكنهم لم يكونوا يميلون إلى استخدام نفس أساليبه. كان ما يريدون الحفاظ عليه فى برنامج جريجورى هى الإصلاحات التنظيمية التى كان قد بدأها؛ أى زيادة حجم الأداة البروقراطية فى البلاط البابوى، وإرسال القصاد الرسوليين، أو السفراء البابويين، إلى شتى أنحاء أوربا، وتأسيس المحكمة الرومانية لتكون هى أعلى ساحة قضائية للكنيسة. ولكنهم كانوا على استعداد للتأنى فى تحقيق

هـذه الغايـات وأن يتصـالحـوا مـع ملوك غـرب أوربـا إذا اقتضت الضـرورة، وأن يسـاوموا بصـلابة وبـاستمرار من أجـل الحصول عـلى تنـازلات محـدودة بـدلا من المخاطرة بالدخول فى صراع أساسى. كانت هذه الروح الاعتـدالية البيـروقراطيـة القانونية هى التى ميزت بابويـة القرن الثـانى عشر عن الثـورة الجريجـورية. فقـد حلت سياسة «المرحلية» محل سياسة «الشمولية».

لقد كان الجيل الجديـد من الكرادلـة يعتبرون النـزاع مع الملوك الألمـان بسبب التقليد العلمانى عقبـة تخلفت عن عصر آخـر فى طريقـه إلى الزوال، وكـانوا عـلى استعـداد لتقديم تنـازلات بعيدة المـدى فى سبيل التـوصـل إلى اتفـاق مـع هنـرى الخامس. ومن ثم أعيد المبـدأ الذى كـان أساسـا لأنهاء النزاع مـع الإنجليز حـول التقليد العلمانى والذى استمر فترة قصيرة من سنة ١١٠٣ إلى سنة ١١٠٧، والـذى وضعه كاليكستوس Calixtus II وهنرى الخامس ضمن اتفاقية وورمس سنة ١٠٢٢. فقد تخلى الامبـراطور الألمـانى عن التقليد العلمـانى وكل مـا يرتبط بـه من مذهب الملكية الثيوقراطية. واحتفظ بحقـه فى أن يطلب ولاء الأسـاقفة ومقـدمى الأديرة فى مملكته قبل ترسيمهم فى مناصبهم. وهكذا منحت البابـوية لـلامبراطـور الألمانى حق الاعتـراض Veto على تعيـين رجال الكنيسـة الألمان، وهـو ما كـان يعنى أنه ظـل صاحب الصوت الحاسم فى اختيارهم.

كان هذا الاتفاق قد أتـاح للملك الإنجليزى أن يـواصل سيـطرته الفعليـة على الشئون الكنسية فى مملكته. ولكن تأثير اتفاقية ورمس، لم يكن بأيـة حال عـودة إلى حـالة مـا قبل الحـرب Status Quo ante bellum، لأن نصف القـرن الـذى شهـد النـزاع حول التقليـد العلمانى قـد سبب تغيرات بعيـدة المدى فى البنـاء السيـاسى والاجتماعى الألمانى بحيث لم يعد الأمبراطور قادرًا عـلى أن يستفيد بشكـل كامـل من التنازلات البابوية. ففى أجزاء كثيرة من الأمبـراطوريـة كان الـدوقات الكبـار قـد حققـوا لأنفسهم سيـادة شبـه كـاملة عـلى أقـاليمهم. وكـانـوا هم، وليس الامبـراطور، الـذين أفادوا من نصـوص الاتفـاقيـة التى تتيـح لهم السيـطرة عـلى التعيينـات الكنسية فى دوقيـاتهم. وفى أجزاء أخـرى من ألمانيـا، ولا سيما فى أراضى الراين، كان كبار الأساقفـة أنفسهم قد صـاروا أمراء أقليميـين ولم يعد بـاستطاعـة الأمبراطور أن يتحكم فيهم. وهكذا، فإن اتفاقية ورمس فى الواقع قد منحت هنرى الخامس وخلفاءه حق التحكم فى تعيين الأساقفـة ومقدمى الأديـرة فى الأراضى التى تملكها عائلاتهم فقط.

هذا التدهور المدمر فى سيادة التاج الألمانى التقليدية على أمور الكنيسة ورجالاتها كان مصحوبًا بخسائر أخرى لحقت بالملكية فى اتجاهات أخرى. فقد أثبت كثيرون من الفرسان - الأقنان Ministeriales، الذين كانت الملكية الألمانية تعتمد عليهم كثيرًا فى القرن الحادى عشر، أنهم غير أهل للثقة. إذ أنهم انتهزوا فرصة الفوضى الناجمة من الحرب الأهلية الطويلة واغتصبوا السيادة على القلاع الملكية التى كانوا يتولون حراستها لكى يساوموا على حريتهم الشرعية مع الملك أو الملك المضاد، وبذلك صاروا سادة عن جدارة واستحقاق. ومع بواكير القرن الثانى عشر بدأ بعض هؤلاء الفرسان - الأقنان السابقين يتزوجون من عائلات النبلاء القديمة. وكثيرون من كبار الأرستقراطيين الألمان ينحدرون من سلالة الفرسان - الأقنان السالين. هذا الضعف الذى اعترى المؤسسات الملكية كان مصحوبًا بتقدم سلطة الأمراء المحليين. وفى التاريخ الألمانى تعنى فترة النزاع حول التقليد العلمانى النمو الهائل فى السيادة الاقليمية للدوقات وغيرهم من كبار السادة الاقطاعيين كما تعنى خلق الحكم الذاتى فى الأقاليم، وهو أمر لم يتم التغلب عليه حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. ومن ثم يقول كثير من المؤرخين الألمان، بحق، أن الفترة بين سنة ١٠٧٥ وسنة ١٢٢ هى التى حسمت المصير الألمانى.

لقد نمت السيادة الأقليمية والسلطة الأرستقراطية فى ألمانيا بسبب تحول البلاد إلى النظام الاقطاعى للمرة الأولى. ولم تكن التبعية الاقطاعية vassalage مجهولة فى ألمانيا قبل النزاع حول التقليد العلمانى، ولكن النموذج الاقطاعى كان جزئيا، وقليل الأهمية، لا سيما فى الشطر الشمالى من البلاد. وقد نتجت عن السنوات الخمسين التى استغرقتها الحرب الأهلية تغييرات سياسية واجتماعية بعيدة المدى. فقد فرض السادة الاقطاعيون الكبار التبعية على فرسانهم، ونصبوا أنفسهم قادة للجيوش الأقطاعية. وفى عشرينيات القرن الثانى عشر تبلورت روابط التبعية الاقطاعية بين طبقات ملاك الأراضى. وكان هذا التحول الشامل للمجتمع الألمانى إلى مجتمع اقطاعى كارثة حاقت بالملكية الألمانية، لأن الهرم الاقطاعى الألمانى كان مبتورا مثلما كان الحال فى فرنسا قبل سنة ١١٥٠. ذلك أن الروابط الاقطاعية لم تكن تتصاعد حتى مستوى الملك، وانما كانت تنتهى بهيمنة كبار الأرستقراطيين. ولم تكن ثمة روابط اقطاعية تربط أفصال كبار السادة الاقطاعيين، بالملك ومن ثم كان ولاؤهم مكرسا للأمراء الاقليميين، الذين كانت لهم آنذاك جيوش كبيرة جيدة التدريب على استعداد للحرب ضد الملك. وكانت قوة الملك العسكرية مستمدة فقط من وضعه كواحد من كبار السادة الاقطاعيين فى دوقيته. ولكن كونه محاطا، آنذاك،

بالأمراء الأقليميين المستقلين، جعل موارده الخاصة غير كافية لاعادة بناء الصرح المتهدم للسلطة المركزية. وانتهز كثيرون من كبار السادة الاقطاعيين فرصة هذا الاستقلال واغتصبوا السلطة التى كانت للملك من قبل على الأملاك الكنسية بفرض الوصاية على الأديرة الكبرى والسيادة على الكنائس الامتلاكية. وهكذا تبنى النبلاء بعض المؤسسات التى كانت أثيرة لدى ملوك أسرة أوت، والملوك الساليين، لتقويض السلطة الملكية.

وفى سبيل تأكيد استمرار ضعف الملكية، حافظ النبلاء على المبدأ الانتخابى فى الملكية الألمانية. وعلى الرغم من أن المبدأ الانتخابى لم يختف اطلاقا من النظرية الدستورية، فإن الممارسة الفعلية تشهد على أن التتابع الوراثى على العرش قد حل محل المبدأ الانتخابى، إذ كان ملوك البيت الأوتوى والبيت السالى يتخذون من الاحتياطات ما يضمن انتخاب أبنائهم قبل وفاتهم. ولكن النبلاء أعادوا أحياء الفكرة الانتخابية بتحريض من البابوية الجريجورية. وقد ألف المنظر الكنسى مانجولد اللاوتنباخى Manegold of Lautenbaxh مقالة تطرح وجهة نظر وظيفية خالصة عن الملكية الألمانية التى يقارن فيها الملك بمربى الخنازير، الموظف بغرض معين، والذى يمكن طرده إذا ما أثار حفيظة مستخدمه. هذا الرأى الراديكالى الأوغسطينى عن الملكية الألمانية كان مبعث سرور الأمراء الأقليميين الذين كانوا، بطبيعة الحال، يرون فى الملك موظفا ذا سلطات محدودة جدا يتم أختياره أو عزله، إذا دعت الضرورة، بواسطتهم. وعلى مدى ربع قرن من الزمان بعد وفاة هنرى الخامس سنة ١١٢٥ كانت الملكية الألمانية متوافقة مع المبدأ الذى نادى به مانجولد. إذ كان النبلاء يختارون الملك، ولا يسمحون له بأية موارد خارج نطاق دوقيته الخاصة، كما كانوا يحولون بينه وبين ممارسة أية سلطة أو زعامة حقيقية فى مملكته وفوق ذلك، كله كان اللقب الملكى ينتقل من أسرة إلى أخرى للحيلولة دون نمو أية مصالح أسرية فى التاج الألمانى.

وهكذا، عندما تم أختيار فريدريك الأول هو هنشتاوفن Hohenstaufen Fredrick I ملكا سنة ١١٢٥، كانت السلطة الملكية قد فقدت فعاليتها على مدى ربع قرن، كما رسفت فى أغلال وقيود شتى على مدى ثمانين عاما. وكانت الموارد الوحيدة التى لم تمس للتاج الألمانى موجودة فى شمال ايطاليا، وهى المنطقة التى كانت للامبراطور الألمانى السيادة الاسمية على مدنها الغنية. ونتيجة للصراع حول التقليد العلمانى كان كل ملك ألمانى يريد استرجاع السلطة التى كانت للأباطرة

السـالين مضـطرًا إلى التطلع صـوب ايطاليـا. ولكن عصـر النـزاع حـول التقليـد العلمانى كان قد شهد أيضًا تغيرات فى شمـال إيطاليـا كان من شـأنها أن تجعل من أية ممارسة حقيقية للسلطة الامبراطورية هناك مسألة محفوفة بالمخاطـر. فمنذ عصـر هنرى الثالث لم تكن المدن الايطالية قد وقعت تحت الحكم الفعـلى لسيدهـا الألمانى الرسمى. وكانت تلك بالضبط هى الفترة التى شهدت النمو الهائل فى ثـروات المدن الايطالية والزيادة الكبيرة فى سكانها وتـطور مؤسساتهـا الكومـونية. فمـدن الشمال الايـطالى، في منتصف القرن الثـالث عشر كـانت تحكمها أوليجـاركيـة صغيـرة من التجار والحرفيـين والصناع، الـذين كانـوا مستعدين وقـادرين على القتـال فى سبيل الحفاظ على مكانتهم وسلطتهم. وكانوا هم الحلفاء الطبيعيين للبـلاط البابـوى الذى كانت فرائصه ترتعد من عودة الامبراطور للظهـور فى إيطاليـا. ولم يجد الامبـراطور سبيلا لاعادة بناء السلطة الملكية فى ألمـانيا سـوى عن طريق غـزو شمال ايـطاليا، ولكن البابا أحس بأن انتصار الامبـراطور فى ايـطاليا لا يعنى سـوى القضاء عـلى الاستقلال البابوى. وإذا كان النزاع حول التقليـد العلمانى قـد قلص موارد التـاج الألمانى، فإنه من ناحيـة أخرى قـد شد البـابويـة إلى صراع حتمي ضـد أول أمير طموح يعتلى عرش المانيـا بعد اتفـاقية ورمس. وعـلى أية حـال، فإن تغـير أحوال الشمال الايطالى أبان فترة الصراع حول التقليد العلمانى، قد جعل نجاح مثل هذه المغامرة الامبراطورية أمرًا مستبعدًا.

ويمكن أن نضيف إلى هـذه النتائـج المدمـرة التى أفرزهـا الصـراع بـين البـابـا والامبراطور تلك الكارثة الثقافية التى تمثلت فى فقـدان ألمانيـا للزعامـة الفكريـة فى غرب أوروبا. ففى سنة ١٠٥٠ كانت الأديرة الألمانية الكبرى مـراكز كبـرى للتعليم والفن، كما كانت مدارس اللاهوت والقانون الكنسى الألمانيـة لا تبارى. ويبـدو أن الحرب الأهلية الطويلة والمنازعـات الشرسـة بين الـدولة والكنيسـة استنزفت طـاقة الكنيسة الألمانية وحولت اتجـاهها. فقـد كان رجـال الكنيسة مثـابرين عـلى تدبيـج المقالات عن العلاقة بين الدولة والكنيسة، ولكنهم تجاهلوا التقدم الهائـل فى الفلسفة والقـانون والأدب والفن الـذى كان يجـرى خلال الفتـرة نفسها فى منـاطق غـرب الراين وجنوب جبال الألب. وهكذا تخلفت الحياة الفكرية فى ألمانيا عن عصرها ثم مـا لبثت أن باتت متخلفـة وعتيقة. وعنـد بدايـة القـرن الثـانى عشـر كـان العلماء الفرنسيون والايطاليون عـاكفين عـلى خلق مؤسسة جـديدة للفكـر الراقى والتعليم العالى، وهى المؤسسة التى قدر لها أن تلعب الـدور الرئيسى فى الحـرية الفكـرية فى العصور الوسـطى العاليـة، ولكن أول جامعـة من هذا النـوع لم تقم فى ألمانيـا قبل

القرن الرابع عشر. لقد تخلف الألمان ثقافيًا كما تخلفوا سياسيًا فى غمار النزاع حول التقليد العلمانى، ولم يستعيدوا مكانتهم الرائدة أبدًا، على الأقل فى العصور الوسطى.

الفصل الثالث عشر

الملكية الأنجلو - نورمانية وظهور الدولة البيروقراطية

١ - انتصال وليم الفاتح(١):

يبدو أن جريجورى السابع قد تساءل بينه وبين نفسه فى أخريات أيامه عما إذا كان قد شن الحرب ضد العدو الحقيقى. فقد كان مهتماً بالسياسة الكنسية للملكية الأنجلو- نورمانية، ولكنه لم يكن بقادر على الانتقاص من سلطة «وليم ابن الزنا» الذى عرف آنذاك باسم «وليم الفاتح»، وهيمنته على الكنيسة بأية وسيلة. فمع تدهور الملكية السالية فى ألمانيا برزت مكانة الحاكم الأنجلو - نورمانى فى أوربا باعتباره ملكًا لا نظير له. وكان وليم وأبناؤه قادرين على التقدم بالمؤسسات الملكية الانجليزية إلى درجة من الكمال والكفاءة لم تكن أوربا تعرفها فى ذلك الحين. وقد توصلوا فى النهاية لتطوير نوع جديد من الملكية يعتمد على الإدارة والقانون لتوحيد المملكة، كما يتيح لهم أن يستغنوا عن الأسس الأيديولوجية التقليدية للحكم الملكى. ففى ذات الوقت الذى كانت فيه الثورة الجريجورية تهدم الأساس الدينى للملكية، كان الحكام النورمان فى إنجلترا يصوغون بديلاً فعالاً يتحاشى الانتقادات البابوية بشكل نسبى. وهكذا كانت للغزو النورمانى لإنجلترا أهمية عظمى بالنسبة لحضارة العصور الوسطى، إذ أنه اتاح الفرصة لخلق نوع جديد من الملكية، كما أنه افتتح الحركة تجاه العلمانية والسلطة المطلقة التى ميزت الدولة فى القرنين الثانى عشر، والثالث عشر.

فى سنة ١٠٦٦ كانت إنجلترا « أرضا قديمة Old Land» على حد تعبير المؤرخ الاقتصادى «ريجنالد لينارد Reginald Lennard». وعلى الرغم من أن الشطر الشمالى من البلاد، الذى لم يكن يصلح للزراعة كان قليل السكان للغاية، فإن

---

(١) استخدم المؤلف عبارة The triumph of Wiliam the Bastard وترجمتها الحرفية «انتصار وليم ابن الزنا»، وقد رأينا ترجمتها على هذا النحو الذى وضعناه فى العنوان. (المترجم)

نصفها الجنوبى، خاصة المنطقة الوسطى الخصيبة، كان كثيف السكان. وكان عدد سكان إنجلترا زمن الغزو النورمانى حوالى مليون نسمة؛ أى أنها كانت بلدًا كثير السكان إلى حد ما، وبعد خمسة قرون كان عدد سكان إنجلترا أقل من أربعة ملايين نسمة. وفى سنة ١٠٦٦ كانت لندن قد صارت مدينة تجارية هامة بالفعل، كما كانت هناك موانىء أخرى تقوم بتجارة نشيطة مع القارة الأوربية. وفى العصور التالية كانت إنجلترا تبدو بلداً واسع الثراء. فقد كانت العملة الأنجلو - سكسونية من أحسن عملات أوربا، كما كانت ضريبة الدانجلد Danegeld[٢] التى كان الملك الإنجليزى يفرضها لقتال الغزاة من الاسكندنافيين قد جلبت قدرًا هائلا من العملات. فضلًا عن أن الأنجلو - سكسون كانوا شعبًا متدينًا ذكيًا. فقد كان منهم القديسون المشهورون، والشعراء المجيدون، والفنانون المهرة الذين عكفوا على تزيين المخطوطات وصقل المجوهرات.

وعلى الرغم من كل هذه الظروف الواعدة، فإن إنجلترا وقعت فريسة سهلة للغزو الأجنبى فى منتصف القرن الحادى عشر. لقد ضرب الأنجلو - سكسون أول الأمثلة عن شعب كان مجيدًا فى كل شىء عدا فن الحكم والحرب، وكان هذا هو العيب الذى أودى بالملكية الأنجلو سكسونية. فقد كانت المقاطعة الإنجليزية المحلية Shire والمحاكم المائة تبدو مؤسسات فعالة إلى حد معقول، ولكن المؤسسات الإدارية للحكومة المركزية كانت ضعيفة وبدائية. فقد كان كبار السادة الاقطاعيين يغتصبون اختصاصات التاج القانونية والمالية بسهولة. وكان هذا التخلف السياسى مصحوبًا بالضعف العسكرى. فبينما كان الفارس المسلح قد بات هو عماد جيوش القارة الأوربية، كان الانجليز فى سنة ١٠٦٦ ما يزالون جاهلين بفنون القتال على ظهور الخيل. وعلى مدى ثلاثين سنة فى مطلع القرن الحادى عشر كانت إنجلترا جزءًا من امبراطورية دانمركية كبرى، وربما كان الملك كانيوت Canute الاسكندنافى هو اكثر الحكام فعالية فى التاريخ الأنجلو - سكسونى. وبعد موت كانيوت، تمزقت

(٢) الدانجلد ضريبة فرضها الملوك الانجلو - سكسون فى القرن العاشر كوسيلة لتمويل الجزية التى كان ينبغى دفعها للغزاة الدانمركيين منذ عهد الملك ايثلريد الثانى Ethelred II (٩٨٧ - ١٠١٦). وعادة ما كانت قيمتها شلنين ولكنها أحيانًا كانت تصل إلى أربعة شلنات وأكثر. وعلى الرغم من أن الجزية كانت تدفع منذ سنة ٩٩١، فإن مصطلح Danegeld لم يعرف إلا بعد الغزو النورمانى. وقد استمر الملوك الأنجلو - نورمان فى فرض هذه الضريبة ولاسيما وليم الفاتح، وهنرى الثانى حتى سنة ١١٦٢ لأغراض حربية خاصة، أو لمواجهة النفقات الإضافية.

(المترجم)

امبراطوريته الكبرى. ووجد النبلاء العلمانيون والكنسيون فى أحد اديرة القارة واحدًا من سلالة الملك ألفرد[٣] وأجلسوه على العرش الإنجليزى. وكان عهد ادوارد المعترف (١٠٤٢ - ١٠٦٦) هو العهد الذى شهد المراحل الأولى للتحلل السياسى للمملكة فى مقابل نمو السلطة الاقليمية لكبار السادة الاقطاعيين. ونتيجة لموت ادوارد دون أن يخلف وريثًا نشبت أزمة حول العرش، وقام ملك النرويج بتجهيز أسطوله لغزو انجلترا. وقام النبلاء الأنجلو - سكسون باختيار أقوى النبلاء، هارولد جودونسون، على أساس من المبدأ الانتخابى الجرمانى القديم، ليكون ملكًا على الشعب الإنجليزى. ولكن «وليم ابن الزنا»، دوق نورماندى الطموح، أدعى أن العرش حق له بالوراثة عن طريق جدته، كما قال أن كلا من ادوارد وهارولد قد وعداه بالعرش عند موت ادوارد.

أطلق المؤرخ هاسكينز، المتخصص فى تاريخ المؤسسات النورمانية، اسم «رجال القرن الحادى الخارقون» على النورمان. أما أوردريك فيتاليس Ordricus Vetalis، المؤرخ الأنجلو - نورمانى المعاصر، فقال أن النورمان شعب طيب وقادر حين يحكمهم حاكم قوى، ولكنهم يتجهون إلى العنف والفوضى عندما يكون حاكمهم ضعيفًا. ولقد استطاع وليم ابن الزنا أن يوجه الخصائص العدوانية لشعبه فى اتجاه بناء. فقد سار على نفس الخطوط التى كان أسلافه قد أرسوها من قبل، بفضل مشورة وتأييد رجال الكنيسة المجربين المتعلمين الذين جاءت غالبيتهم من مناطق تدخل ضمن نطاق الامبراطورية الألمانية السالية. وبذلك بنى أكبر دولة إقطاعية فى

---

(٣) هو الفرد الكبير Alfred the Great (٨٩٩ - ٩٤٨) ملك وسكس Wessex. وقد شاركه أخوه ايثلريد Aethelred الحكم تاركًا إياه يقود الحرب ضد الدانمركيين. وقد هزمهم فى سنة ٨٨١ م عند آشدون Ashdown، وعلى الرغم من عودتهم استطاع أن يمنعهم من غزو وسكس. ونتيجة للصراع المستمر بينه وبين الدانمركيين انقسمت البلاد إلى قسمين: جزء أنجلو - سكسونى مستقل يحكمه ملك وسكس، وجزء يحكمه الدانمركيين The Danelaw. وقد بنى الفرد نظامًا قويًا للدفاع ويعتمد على الخدمة الإجبارية لكل الأحرار فى المملكة، والحصون، والأسطول. وكان الفرد أول ملك أنجلو - سكسونى يوقف الغزوات الدنمراكية للبلاد. وعلى الرغم من أنه لم يستطع أن يحرر البلاد من الدانمركيين تمامًا فإن انجازاته ضمنت له مكانًا خاصًا فى التاريخ الإنجليزى. وقد أسس فى بلاطه مدرسة لأبناء النبلاء كما تولى رعاية البحث العلمى. وشجع الأديرة على أن تكون مراكز للتعليم والبحث بل أنه نفسه كتب فى التاريخ والجغرافيا مؤلفات تعتبر أول ما كتب نثرًا فى اللغة الأنجلو - سكسونية. أنظر:

Asser, Life of Alfred the Great (1904); B.A. Lees, Alfred the Great (1915).

(المترجم)

أوربا على أساس مركزى، كما نجح فى الوقت نفسه فى اكتساب سمعة يحسد عليها كصديق للكنيسة وحام لها مما جعله يحتل مركزًا وطيدًا فى روما.

استطاع وليم أن يستفيد من كل هذه الأسس الاقطاعية والكنسية التى قامت عليها سلطته للإعداد لغزو انجلترا. فقد عبأ كل الجيش الاقطاعى فى الدوقية تقريبًا، وكان قوامه حوالى ألف من الفرسان. ذلك أن الازدياد المستمر فى عدد السكان المالكين للأراضى فى الدوقية (وهو تزايد لم ينقص معدله رحيل المغامرين من النورمان التواقين للنهب إلى جنوب إيطاليا) كان يعنى نقص الاقطاعات فى نورماندى بشكل جعل الطبقة المحاربة تتحرق شوقًا إلى المغامرات فى الخارج. وبالإضافة إلى ذلك، جند وليم المرتزقة من بين الفرسان الذين لا يملكون أرضًا فى الفلاندرز وبريتانى، واستطاع أن يعبر القنال الإنجليزى بجيش قوامه ألف وخمسمائة فارس بالإضافة إلى رماة السهام وقوات المشاة التى تساندهم. وكانت تلك قوة عسكرية مهولة بمقاييس القرن الحادى عشر.

كان احتمال نجاح وليم كبيرًا بفضل التأييد المعنوى الذى أسبغته عليه البابوية. فقد أرسل البابا إلى الدوق بيرقا بابويًا، بتحريض من الكاردينال هيلدبراند، وحمل وليم هذا البيرق معه إلى إنجلترا. فلماذا أيدت البابوية الغزو الذى قام به وليم الفاتح؟ لقد كان الدوق النورمانى يدعى لنفسه حقًا فى وراثة العرش، وهو الأمر الذى كان هارولد (منافسه على العرش) يفتقر إليه، وكان يمكن الاحتجاج بأن وليم أحق من العرش من الايرل Earl الإنجليزى، لأنه كان أقدر منه على تحمل تبعات الحكم. بيد أن هذه الأسباب كانت تعتبر أسبابًا هامشية فى تقدير البابوية. إذ أن البلاط البابوى لم يكن راضيًا عن حال الكنيسة الإنجليزية، التى كانت تدير أمورها بشكل مستقل تمامًا، وثبت أنها متخلفة وفاسدة للغاية. والواقع أن أسقفية كانتربورى فى سنة ١٠٦٦ كانت ترزح تحت وطأة أوضاع فاضحة؛ وأدعت البابوية أنه لم يتم انتخاب كبير الأساقفة القائم وفقًا لقوانين الكنيسة وخلعته من منصبه، ولكن هارولد جودونسون كان من الجرأة بحيث رفض تنفيذ القرار البابوى. وكانت الإدارة البابوية تحت توجيه هيلدبراند تتوقع أن يؤدى غزو وليم لإنجلترا إلى إصلاح الكنيسة الإنجليزية وإلى ربطها برباط وثيق مع روما. ولكن هيلدبراند فشل فى تقييم سياسة وليم تجاه الكنيسة تقييمًا واقعيًا. فقد كان واقعًا تحت تأثير سمعة وليم كصديق متدين وتقى ومؤيد للكنيسة، ولكنه لم يضع فى حسبانه العلاقات بين الكنيسة والدولة فى نورماندى، وهى العلاقات التى كانت تشبه إلى حد كبير

العلاقات التى كانت قائمة فى الامبراطورية الألمانية السالية. هذا الخطأ فى الحسابات الذى وقع فيه هيلدبراند هو الذى فتح الطريق لبناء النظام النورمانى للعلاقات بين الكنيسة والدولة فى إنجلترا.

والتقرير التصويرى الذى تحويه لوحة بايبى Bayeux المنسوجة[٤]، والتقارير الحية التى أمدنا بها الكتاب المعاصرون، على الرغم من أنها متضاربة إلى حد ما، تصور لنا معركة هاستنجز التى حسمت مصير إنجلترا، فهى توضيح أن الأنجلو - سكسون خاضوا الحرب بصورة طيبة - أفضل مما كان متوقعًا منهم فى ظل الظروف السائدة آنذاك، لأن جيش هارولد كان مرهقًا من جراء نضاله ضد النرويجيين الذين كان قد فرغ لتوه من دحرهم فى الشمال، ثم كان عليه أن يقطع إنجلترا بطولها لمواجهة القوات النورمانية الشديدة المراس. لقد أحرز وليام نصره الكبير بفضل أسلحة أكثر تقدمًا، وأساليب قتال أكثر تفوقًا. وحارب الأنجلو - سكسون بشجاعتهم المعهودة، وكانت معركة هاستنجز مواجهة دموية للغاية بمقاييس العصور الوسطى. إذ أن عددًا كبيرًا جدًا من النبلاء الأنجلو - سكسون لقوا مصرعهم فى ساحة القتال، على حين تم تجريد غالبية الناجين منهم من أراضيهم وربما تحولوا إلى أقنان. وهكذا تسبب الغزو النورمانى فى القضاء على الطبقة الإنجليزية الحاكمة واستبدالها بالسادة الاقطاعيين الفرنسيين، على الرغم من أنه لم يؤثر فى أوضاع الفلاحين الإنجليز وظروفهم.

وعلى مدى أربعين سنة بعد الغزو النورمانى أبدى النورمان احتقارهم التام لكافة وجوه الثقافة الأنجلو - سكسونية. وربما يكون قد تم تدمير بعض أعظم الأعمال الفنية الأنجلو - سكسونية فى تلك الفترة؛ إذ أن بعضًا من أفضل المخطوطات الأنجلو - سكسونية المصورة لم يعثر عليها سوى فى القارة، وهى مخطوطات كانت قد أرسلت على سبيل الهدية للحكام أو لرجال الكنيسة فى بلدان أوربا، ولم يعثر فى

---

(٤) نسبة إلى مدينة باليى فى نورماندى بفرنسا. واللوحة المسيحية الشهيرة التى ترجع إلى القرن الحادى عشر محفوظة بمتحف البلدية فى هذه المدينة الفرنسية حتى الآن. وهى على الطراز الفنى المعروف باسم الرومانسك Romanesque نسجتها الملكية ماتيلدا زوجة وليم الفاتح ووصيفاتها لتصوير معركة هاستنجز والغزو النورمانى لإنجلترا سنة ١٠٦٦ وطولها ٧٠ سم وعرضها ٥٠ سم، وهى تصور الحملة من الاستعدادات فى نورماندى حتى الأبحار ثم المعركة نفسها. وفضلاً عن قيمتها الفنية فإنها تعتبر أيضًا مصدرًا تاريخيًا فائق القيمة لفن الحرب والسلاح، والسفن والأدوات.

(المترجم)

إنجلترا نفسها على أى من هذه المخطوطات. لقد كان النبلاء والنورمان يتحدثون اللغة الفرنسية، كما أنهم كانوا يمثلون الثقافة والحضارة الفرنسية. وأمست اللغة الأنجلو - سكسونية هى لغة الفلاحين، ولم يتم احياؤها فى شكلها الأدبى سوى، فى القرن الرابع عشر. وعلى مدى قرن ونصف قرن على الأقل بعد الغزو النورمانى ظلت إنجلترا مجرد مقاطعة تابعة لفرنسا. وعلى الرغم من الخسائر التى لحقت بالأدب المحلى والفن الوطنى، كان الغزو النورمانى مصدر نفع كبير لإنجلترا، التى كان مقدرًا لها أن تفقد استقلالها فى ستينيات القرن الحادى عشر. إذ أن إنجلترا كانت على عتبة التحلل والتفكك السياسى، مما جعلها فريسة سهلة لأى غزو أجنبى. وكان مقدرًا لها أن تصبح تابعة لاسكندنافيا أو فرنسا. لقد تمثلت نتيجة الغزو النورمانى فى التوحيد السياسى للبلاد، كما أن هذا الغزو أتاح لإنجلترا فرصة المشاركة فى الحياة الثقافية والدينية والفنية الفوارة النشطة التى عاشتها فرنسا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر. أما الغزو الاسكندنافى، لو حدث، فإنه كان سيحرم إنجلترا من جميع هذه الإنجازات.

وتمكن وليم، بفضل مهارته السياسية المتميزة، من الإبقاء على ما كان يمكن استمراره من المؤسسات الأنجلو - سكسونية. فقد أبقى على المقاطعة المحلية Shire والمحاكم المائة، كما أبقى على المكاتبات الأنجلو - سكسونية الملكية، وهى الاتصالات المكتوبة التى كان المجلس الاستشارى الملكى يطلبها من نوابه المحليين، كذلك أبقى على نظام التتويج الأنجلو - سكسونى بنغماته المثيرة التى تحبذ الملكية الثيوقراطية. بيد أن هذه الأيديولوجية لم تكن سوى مسألة هامشية، لأن الملكية الأنجلو - نورمانية أقامت سلطانها على أساس مؤسسات جديدة استوحيت من نورماندى؛ بل أن مؤسسات ما قبل الغزو التى استمرت فى الوجود اكتسبت حيوية وأهمية جديدة بفضل مكانها فى النظام السياسى والتشريعى.

لقد تم صبغ المملكة بالصبغة الاقطاعية تمامًا على يد وليم الفاتح؛ وبنهاية حكمه فى سنة ١٠٨٧ كان الشطر الأكبر من هذه العملية قد تم إنجازه. وباعتباره السيد الأعلى على كل ضيعة إقطاعية فى إنجلترا بموجب حق الفتح استطاع أن يبنى هيكلًا إقطاعيًا حذرًا يتركز حول الملك باعتباره السيد الاقطاعى لكل فارس فى المملكة. وكما هو الحال فى نورماندى، تم إخضاع الأساقفة ومقدمى الأديرة لالتزامات اقطاعية باهظة فى بادئ الأمر، ثم منحت الاقطاعات للنبلاء المدنيين. وباستثناء السادة الاقطاعيين فى مناطق الحدود والذين منحوا امتيازات خاصة

ومساحات شاسعة من الأراضى، كانت ضياع أى سيد إقطاعى كبير موزعة بين مقاطعتين أو ثلاث مقاطعات للحيلولة دون نمو أية نزعة استقلالية إقليمية. وكما هو الحال فى نورماندى أيضًا، كان عدد الفرسان الواجب تقديمهم للخدمة فى الجيش الملكى مقابل كل ضيعة إقطاعية ملكية، يتدرج من خمسة فرسان إلى ستين فارسًا على الأكثر، وكان مجمل حجم الخدمة العسكرية الإقطاعية التى يدين بها الأفصال للملك الأنجلو - نورمانى يصل إلى خمسة آلاف فارس، وهو رقم كبير بمقاييس ذلك الزمان. ولم يكن باستطاعة أحد أن يبنى قلعة فى البلاد دون أذن ملكى، كذلك تعين على الأفصال الاقطاعيين الملكيين أن يحضروا إلى «بلاط الملك Curia regis» ثلاث مرات سنويًا على الأقل، لكى يستمعوا إلى الملك وهو يعلن خططه، ويقدموا له مشورتهم السياسية، ولكى يشاركوا فى نظر القضايا القانونية التى تتعلق بالاقطاعات الملكية. وكانت شئون الحكم تدار بواسطة مجموعة صغيرة من النبلاء العلمانيين والكنسيين والكتاب الديريين الذين كانوا أعضاء فى المجلس الاستشارى الملكى. أما النواب المحليون للملكية الأنجلو - نورمانية فقد احتفظوا بلقب شريف Sheriff الانجليزى القديم (ومعناه حاكم المقاطعة Shire reeve)، ولكنه كان هو نفس الفيسكونت Viscount النورمانى من حيث الواقع، وهو اللقب الذى غالبًا ما ترد الإشارة إليه فى الوثائق الملكية الرسمية. فلم يعد ذلك المندوب الملكى الضعيف العاجز الذى كان قبل الغزو، والذى كان كبار السادة المحليين يتحكمون فيه، ولكنه صار هو الصوت القائد فى شئون الحكم والقضاء فى المقاطعة. ومع أن الشريف، من حيث إمكانياته الخاصة، كان مجرد واحد من ملاك الأراضى المتوسطين، فإنه تمتع بنفوذ هائل وسلطة ضخمة بسبب وضعه كممثل لحكومة ملكية على درجة كبيرة من الكفاءة والفعالية، وهى حكومة لم تكن تطيق أى تمرد حتى من جانب أكبر السادة الأقطاعيين المحليين فى البلاد، كان الشريف يرأس محكمة المقاطعة، كما كان هو المندوب المحلى للخزانة الملكية.

وقد أدهش وليم الفاتح وأبناؤه معاصريهم بمدى اتساع مواردهم المالية. ولم يكن هذا بسبب ثروة إنجلترا فقط، إذ أن من المؤكد أن فرنسا وألمانيا كانتا أكثر ثراء، وإنما لأن الملك الأنجلو - نورمانى استطاع أن يفرض الضرائب على موارد مملكته بدرجة تتعدى كثيرًا قدرة أى حاكم آخر فى أوربا. لقد كان الملك بحاجة إلى المال لتوطيد مركزه ومركز أسرته، ولدعم إدارته المركزية، وتمويل مندوبيه المحليين ومؤسساته العسكرية. هذه الكفاءة النسبية للنظام الضريبى الملكى الإنجليزى الذى شيده وليم الفاتح، تعتبر مفتاحًا غاية فى الأهمية لفهم التاريخ السياسى فى العصور

الوسطى. فهى تساعدنا على إدراك السبب فى أن الملك الإنجليزى كان حتى القرن الخامس عشر يستطيع أن يلحق الهزائم الساحقة بالملوك الفرنسيين الذين كانوا يحكمون بلادًا بلغ عدد سكانها ثلاثة أضعاف سكان إنجلترا، والذين كانت ثرواتهم الزراعية والصناعية والتجارية (إذا ما استطعنا تقديرها بدقة) أكبر كثيرًا من ثروات إنجلترا. وفى العصور الوسطى، كما هو الحال فى القرن العشرين، كانت الحروب تتكلف أموالاً كثيرة، وكانت سلطة أى ملك وقوته تستند إلى كفاءة نظامه الضريبى وشموليته. ومن هنا ظل الملك الأنجلو - نورمانى على مدى قرن على الأقل متفوقًا على ملوك آل كابيه فى فرنسا، كذلك لم يكن هناك حاكم ألمانى على مدى القرنين الثانى عشر والثالث عشر يستطيع التحكم فى موارد بلاده المالية مثل الملك الأنجلو - نورمانى.

كان مورد الدخل الرئيسى لملوك العصور الوسطى هو ضيعاتهم الخاصة، وكان وليم بطبيعة الحال يستمد جزءا أساسيا من دخله من الأملاك الملكية التى كان الشريف مسئولا عن إدارتها. كذلك كانت المحاكم مورد دخل وفير، ولكن المهارة فى استغلال الإمكانات الاقطاعية فى جباية الضرائب هى التى كانت مصدر الموارد المالية الضخمة للحكام الأنجلو - نورمان. وكان وليم يتمتع بالحقوق الاقطاعية على أفصاله، شأن أى سيد اقطاعى آخر، واكتشف القائمون على خزائنه أن هذه النظم يمكن أن تكون مصدرا لمبالغ طائلة. إذ لم تكن الالتزامات الاقطاعية تجاه التاج وقفا على الأفصال الاقطاعيين العلمانيين، بل كانت الأسقفيات والأديرة خاضعة لنفس هذه الأنماط الضريبية. وبالإضافة إلى هذه الموارد كلها، والتى كانت تشكل الدخل الملكى، بدأ وليم يسمح لأفصاله بعدم إرسال فرسانهم للخدمة فى الجيش الملكى الاقطاعى لقاء مبلغ من المال يتم تقديره على أساس حجم الاقطاع الذى يملكه كل منهم، وقد عرف هذا النظام باسم سكوتاج Scutage (ومعناها الحرفى «نقود الدرع Shield money) فى أوائل القرن الثانى عشر. وقد فرح أفصال وليم لتحررهم من عبء مواصلة تدريب فرسانهم وتجهيزهم للحرب، كما أن وليم كان يفضل أن يستغل المال الذى يحصل عليه من السكوتاج فى استئجار المرتزقة لشن حروبه داخل القارة. ومن دلائل التناقض أن الملك نفسه، الذى وصل بالنظم الاقطاعية إلى أعلى مراحل تطورها واستخدم هذه النظم بكفاءة عالية لتدعيم الملكية، كان هو أول من أدرك عدم فعالية النهج الاقطاعى فى تكوين الجيوش. فبموجب القوانين الاقطاعية كان على الأفصال أن يخدموا فى جيش الملك أربعين يوما فقط فى السنة وهو الأمر الذى كان يسبب إزعاجا فى أية حملة عسكرية طويلة؛ كما أن الفرسان الذين كانوا

ينضمون إلى جيشه الاقطاعى، لم يكونوا دائما على درجة كافية من التسليح والتجهيز؛ وكان من الأفضل للملك أن يترك معظم الجيش الإنجليزى على أرض الوطن ليتصدى لأية غزوة إسكندنافية أخرى كبيرة، وهو خطر كان يلوح دائما خلال عهد وليم الفاتح، كذلك كان وليم يعانى من مشكلة خاصة هى مشكلة نقل الخيول والفرسان عبر القنال الإنجليزى، وهو أمر كان مكلفا ومحفوفا بالمخاطر فى آن واحد. فكان وليم يفضل استئجار المرتزقة من الفرسان الذين لا يمتلكون أرضا فى نورماندى والفلاندرز وبريتانى لكى يستخدمهم فى حملاته التى كان يقوم بها على الحدود ضد مختلف الأمراء الفرنسيين. وسرعان ما أدرك أعداء الملك الأنجلو - نورمانى من ملوك وأمراء القارة الحاسدين مغزى التجديد الذى كان يقوم به فى أداته العسكرية. وقد أشار أحد الوزراء الرئيسيين فى بلاط الملك الفرنسى فى النصف الأول من القرن الثانى عشر إلى الملك الإنجليزى بقوله: «هذا الرجل الثرى يشترى الفرسان ويجمعهم على نطاق واسع». كان وليم هو أول من بادر بإحلال القوات المرتزقة محل الجيوش الاقطاعية، وكان هذا واحدا من التطورات العسكرية الأساسية فى العصور الوسطى العالية.

لقد تجلت عبقرية حكومة وليم وقدرتها من خلال التجديدات القانونية والسياسية والعسكرية على السواء. ففى سبيل فض المنازعات بين كبار البارونات خولت محاكم المقاطعات حق استجواب بعض الرجال الذى يقسمون اليمين من سكان المناطق المجاورة، أو المُحلَّفين juries كما أطلق عليهم فيما بعد. وكان الأنجلو - سكسون قد استخدموا مثل هؤلاء المحلفين أحيانا لتوجيه التهم الجنائية فى ساحة المحاكم الشعبية، ولكن ملوك فترة ما قبل الغزو كانوا من العجز بحيث أنهم لم يدركوا قيمة هذا النظام فتلاشى وإختفى قبل القرن الحادى عشر. كذلك جلب وليم الفاتح نظام الاستجواب إلى إنجلترا مرة أخرى، دون أن يعرف شيئا عن تجارب الأنجلو - سكسون الخائبة معه، وهو النظام الذى يمكن أن نجد أصوله فى العصر الكارولنجى. وفى النصف الثانى من القرن الثانى عشر كان نظام التحرى بواسطة المحلفين يستخدم فى القضايا الجنائية وفى القضايا المدنية على السواء، ثم صار هو أساس العملية القانونية الإنجليزية.

تجلت طاقة الملكية الأنجلو - نورمانية وذكاؤها بوضوح فى السنة الأخيرة من حياة وليم، وذلك عندما تمت عملية مسح شامل للأملاك والملاك فى إنجلترا، كما كانت قبل الغزو، وما صارت إليه فى سنة ١٠٨٦. ولم يكن باستطاعة أية حكومة

أخرى فى أوربا أن تحقق مثل هذا الإنجاز قبل القرن الثالث عشر. هذا الإنجاز جمعت نتائجه فى سفرين هائلين عرفا باسم Domesday Book. هذا السجل وفر للحكومة الملكية والمحاكم حصرا شاملا عن الثروة وملاك الأراضى فى إنجلترا لأغراض الضرائب وإجراءات التقاضى. وكان المبعوثون الملكيون يستخدمون هذا السجل إلى جانب المعلومات المستقاة من شهادات المئات من المحلفين المتعلمين. وهو يمدنا بأكثر السجلات تفصيلا عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى إنجلترا العصور الوسطى. وقد ظل متفوقا فى قيمته كمصدر للمعلومات الإحصائية على غيره من المصادر فى أوربا حتى القرن التاسع عشر. ويبقى هو أهم الآثار الدالة على أعمال وليم الفاتح ومساعديه الكنسيين، الذين حولوا إنجلترا من دولة متخلفة إلى دولة من أكثر دول أوربا تقدما، وذلك فى غضون عشرين عاما فقط.

٢ - مغزى النزاع الإنجليزى حول التقليد العلمانى:

حتى رجال الكنيسة الأنجلو - سكسون المستاءين الساخطين أعجبوا بإنجازات وليم الفاتح وحازت إحترامهم، ولكن جريجورى السابع لم يبتهج كثيرا بنجاحه المؤزر. فبينما كانت قوة الإمبراطور الألمانى تتدهور تحت وطأة الهجوم البابوى، برز زعيم علمانى جديد ذو قدرة أكبر ليلعب دوره على مسرح السياسة الأوربية. ولم يكن مغزى هذا التطور ليغيب عن ناظرى جريجورى. فقد كان هذا يشكل تهديدا، على المدى الطويل، للإنجاز الذى تم تحقيقه فى ظل النظام العالمى الجديد الذى تصوره، وهو خطر يفوق فى مداه الخطر الكامن فى شخص الإمبراطور الألمانى. فضلا عن أن العلاقات بين الكنيسة والدولة فى ظل النظام الأنجلو - نورمانى كانت به وجوه شبه مزعجة بالموقف فى ألمانيا عشية النزاع حول التقليد العلمانى. ولم يهتم وليم بتأكيد تقاليد الملكية الثيوقراطية، ولكنه استطاع أن يسيطر تماما على شئون الكنيسة الإنجليزية من خلال التقليد العلمانى، وربط الأساقفة ومقدمى الأديرة برباط التبعية الاقطاعية للملك. ومع ذلك، كان رجال الكنيسة موالين تماما للملك الذى لم يكن مصدر خوفهم فحسب، وإنما كان محل إحترامهم وإعجابهم أيضا، مثلما كان الحال فى ألمانيا. فقد تركزت الأعمال التى تتطلب تعليما راقيا بأيدى الكتبة الديريين المخلصين الذين ترقوا بفضل خدماتهم القيمة ليتولوا المناصب الديرية والكنسية الشاغرة. وكان لانفرانك كبير أساقفة كانتربورى، الذى ذاع صيته فى سائر أنحاء أوربا كعالم من علماء اللاهوت والقانون الكنسى، يوافق تماما

على هذا الرباط الوثيق الذى يجمع بين الملك والكنيسة. وربما كان هو المسئول عن تقوية هذه الرابطة وتهذيبها باعتباره مستشارا ثقة لوليم.

لقد نتج عن الغزو النورمانى تحسن كبير فى المستوى الأخلاقى والثقافى لكبار رجال الكنيسة فى إنجلترا. فقد إزدهرت الأديرة فى ظل حماية الملكية، كما تمت دراسة مجموعات القانون الكنسى ذات الصبغة المحافظة فى الفترة السابقة على العصر الجريجورى. وفى ظل الحماية تأسست المكتبات الديرية الكبرى، كما دب النشاط فى مجال الدراسات المتعلقة بالطقوس الكنسية والكتابات التاريخية. وبنيت كنائس حجرية فخمة على الطراز النورمانى الرأسى، وهى الكنائس التى تعتبر كاتدرائية دورهام Durham مثالا بارزا عليها، فضلا عن أن عدد رجال الكنيسة قد تزايدوا وتهذبت خصالهم.

بيد أن جريجورى إكتشف أن الكنيسة الإنجليزية بعد الغزو لم ترتبط بروما أكثر من ذى قبل. وأصدر وليم مرسوما يمنع أيا من رجال الكنيسة الإنجليز من الذهاب إلى روما، أو استقبال المندوبين البابويين، أو اللجوء إلى المحكمة البابوية دون إذن منه. وكانت مثل هذه القيود مخالفة للسياسة البابوية فى العصر الجريجورى مخالفة صارخة، ومع ذلك لم يستطع جريجورى أن يتدخل. فلم يكن فى إنجلترا أمراء متمردون يمكنه استغلالهم كعنصر مناوىء ضد الملكية، كما كان واضحا أن لانفرانك رئيس أساقفة كانتربورى الواسع النفوذ لم يكن متحمسا للإصلاح الجريجورى، ولم يكن جريجورى من الحماقة بحيث يدخل فى قطيعة مكشوفة مع وليم على حين كان هنرى الرابع ما يزال قائما فى الساحة. وعلى أية حال، لم يكن بوسع البابا أن يقاوم رغبته فى تأكيد سلطته على الملك الإنجليزى وكبير الأساقفة. وقد زعم جريجورى أن غزو وليم لإنجلترا قد تم تحت بيرق البابوية، وفى ظل الشروط العامة لهبة قسطنطين، مما يستوجب أن يكون الفاتح فصلا اقطاعيا تابعا له. ولم يلق وليم بالا إلى هذا الكلام بطبيعة الحال. ثم طلب البابا من لانفرانك أن يحضر إلى روما بنفسه ليقدم آيات خضوعه للبابا، ولكن كبير الأساقفة راوغ ورفض أن يغادر إنجلترا، ثم دخل فى مفاوضات سرية مع البابا المضاد الذى كان الإمبراطور الألمانى هنرى قد عينه على سبيل الحيطة. وبهذا لم يستطع جريجورى أن يؤثر فى الموقف الإنجليزى بأية حال.

وبعد موت وليم الفاتح سنة ١٠٨٧، ثم موت لانفرانك سنة ١٠٨٩ بدأت دلائل الضعف تظهر على التحالف الوطيد بين الملكية والكنيسة فى إنجلترا. فقد إستغل

خليفة وليم، وثانى أبنائه، روفوس Rufus (١٠٨٧ - ١١٠٠) حقوق التاج الاقطاعية فى فرض الضرائب الباهظة على الكنيسة. فضلا عن أنه كان مصابا بالشذوذ الجنسي، كما كان يظهر تعاطفا غريبا تجاه اليهود، مما أفقده حب رعاياه. كذلك كان رئيس أساقفة كانتربورى سان آنسلم St. Aneselm العجوز (وهو راهب نورمانى - إيطالى أيضا كان أعظم علماء اللاهوت فى زمانه) أكثر تعاطفا تجاه برنامج الإصلاح الجريجورى من معلمه وأستاذه لانفرانك. ونشب نزاع مرير بين آنسلم والملك وتعاطف رجال الكنيسة مع كبير الأساقفة المبجل لشخصه ولكنهم لم يساندوه، لأنهم كانوا يخشون غضب روفوس من ناحية، ولأنهم كانوا ضد فكرة إدخال برنامج الإصلاح الجريجورى إلى إنجلترا من ناحية أخرى. وتركوا آنسلم فى مواجهة الإختيار البديل الوحيد وهو الذهاب إلى روما لطلب التدخل البابوى. وكان لابد لجريجورى السابع من إقتناص الفرصة لو كان هو القائم على عرش بطرس، ولكن البابا آنذاك كان شخصا آخر من الرهبان الكلونيين هو أربان الثانى الذى لم يكن يميل إلى الدخول فى منازعات مريرة. فقد كان اربان قد فرغ لتوه من عقد معاهدة مع حاكم صقلية النورمانى مكنته من إحكام سيطرته على الكنيسة فى صقلية، وكان من دواعى حزن آنسلم وغمه أن مضى البابا فى سبيله لكى يعقد معاهدة مماثلة مع الملك الإنجليزى. وكان هذا ببساطة إعمالا لمبدأ المعاملة بالمثل quid pro quo، إذ أن روفوس إعترف باربان الثانى بدلا من البابا المضاد، كما أعلن أربان موافقته على نظام العلاقات بين الكنيسة والدولة الأنجلو - نورمانية.

وجاء إرتقاء هنرى الأول (١١٠٠ - ١١٣٥) الأخ الأصغر لروفوس، والذى كان على شاكلة أبيه فى كل شىء، لعرش إنجلترا، وإرتقاء باسكال الثانى لعرش البابوية، ليغير الموقف بشكل جذرى. وما أن حلت سنة١١٠٣ حتى كان كل من الملك الإنجليزى والبابا منغمسين فى نزاع مرير حول التقليد العلمانى. فقد وقع البابا قرار الحرمان على أحد الدوقات النورمان، وكان كبيرا لمستشارى هنرى، وهدد البابا بتوقيع قرار الحرمان على الملك نفسه فى الخطوة التالية. ولم يعد بإمكان أحد، حتى آنسلم ودعوته إلى الاعتدال، أن يغير من إتجاه الصراع الممتد. وكلف الملك الأنجلو - نورمانى القوى، أبرز مؤيديه الكنسيين، وهو كبير أساقفة يورك، جيرارد، بإحياء تقاليد الملكية الأنجلو - سكسونية دفاعا عن الحق الملكى فى تعيين رجال الكنيسة. ومقالات مؤلف يورك المجهول Anonymus of York، التى كانت نتاجا لهذا الصراع، مبعث بهجة وسرور للدارسين المهتمين بالنظرية السياسية فى

العصور الوسطى الباكرة، ولكنها لا تنقل لنا بأى حال شكل ونمط الملكية الأنجلو - نورمانية، التى جعلت أساس الملكية هو الأداة البيروقراطية القانونية والإدارية بدلا من الأيديولوجية الدينية التى لم تعد توافق حاجات العصر. وعلى أية حال، كان هنرى يعتبر أنه حتى تقاليد الملكية الثيوقراطية البالية يمكن أن تكون ذات فائدة فى حال نشوب صراع طويل الأمد ضد البابوية.

ومهما يكن من أمر، فإن النزاع الإنجليزى حول التقليد العلمانى كان قصير الأمد. فقد انسحب آنسلم إلى منفاه تاركا الملك والبابا يخوضان الصراع فيما بينهما، وظل الأساقفة ومقدمو الأديرة الإنجليز على ولائهم للنظام السائد فى العلاقات بين الدولة والكنيسة. وتحول اهتمام باسكال الثانى سنة ١١٩٦ صوب مشروع حملة صليبية ضد القسطنطينية، وكان يأمل، دون جدوى، فى أن يؤيد هنرى هذا المشروع. ولذا وافق على إقتراح الملك بالمصالحة على أساس المبدأ الذى سارت عليه الملكية الأنجلو - نورمانية طويلا، وهو مبدأ التمييز بين الإمكانات الدينية والإمكانات الإقطاعية - السياسية لكبار رجال الكنيسة. وبمقتضى معاهدة لندن سنة ١١٠٧، أعلن هنرى خضوعه الرمزى لروما بأن تخلى عن التقليد العلمانى، ولكنه إحتفظ لنفسه بسلطة كاملة على الأساقفة ومقدمى الأديرة فى إنجلترا بفضل التبعية الإقطاعية التى فرضها على الكنيسة.

ولم يمر النزاع حول التقليد العلمانى دونما نتائج. إذ أن هنرى تنبه إلى الأخطار الكامنة فى طيات التحالف بين الملكية الإنجليزية والكنيسة، وهو التحالف الذى كان يتهدده التدخل البابوى، كما أن هذا النزاع شجع هنرى على تنمية قوته العلمانية الخالصة من خلال مواصلة بناء البيروقراطية الإدارية. وبعد النزاع حول التقليد العلمانى تخلى هنرى عن سياسة آبائه فى استخدام العلماء الديريين فى الجهاز الإدارى، لأن الرهبان أثبتوا أنهم أكثر تأثرا بالأفكار الجريجورية وأكثر خضوعا لروما. واستخدم بدلا منهم كتبة من رجال الكنيسة - لأنه لم يكن هناك متعلمون من غير رجال الكنيسة فى إنجلترا آنذاك - الذين يرعون مصالح الملك باعتبارهم بيروقراطيين محترفين مخلصين. ومثل أولئك الموظفين الذين جمعوا بين الغلظة والقسوة من جهة، والمقدرة الفائقة من جهة أخرى، هم الذين كافأهم الملك بتعيينهم فى الوظائف الأسقفية ذات العائد الكبير. وقد توسع هنرى فى استخدام البدل النقدى Scutage الذى إبتدعه أبوه لكى يقلل من إعتماد الملكية الأنجلو - نورمانية على خدمة الفرسان المجندين من أراضى الكنيسة. وإزدادت كفاءة الخزانة الإنجليزية

بفضل إقامة جهاز حسابي متحكم عرف باسم وزارة المالية Exchequer، وهي وزارة إقتبست من القارة الأوربية نظام المحاسبة على أساس تعدادات مختلفة. وكانت وزارة المالية تحفظ السجلات الخاصة عن الدخل والنفقات الملكية، وهي السجلات التي عرفت باسم Pipe rolls، ولم يكن هناك نظام شبيه بهذا النظام في المحاسبات في مملكة آل كابيه بفرنسا حتى مطلع القرن الثالث عشر. كذلك أمكن تحقيق الفعالية للمحاكم، كما أحكمت السيطرة الملكية على محاكم المقاطعات عن طريق إرسال لجان دورية من القضاة الجوالين العاملين في بلاط الملك Curia regis لكي يترأسوا محاكم البلاد. وبحلول سنة ١١٣٥ كانت مؤسسات الملكية الإنجليزية تسبق الممالك الأوربية كثيرا، لدرجة أن الكتاب الملكيين كانوا قادرين على أن ينسبوا إلى الملك هنري الأول إختصاصات الإمبراطور في القانون الروماني «فهو الذي يشع منه القانون والسلطان ليغمر كافة أرجاء المملكة». وكان هذا هو الموقف السائد أيضا في نورماندى التي إنتزعها من أخيه الضعيف روبرت بالغزو.

وحينما كان نبلاء فرنسا وألمانيا في ذروة ازدهار سلطاتهم الاقليمية، كان البارونات الانجليز، محكومين تماما بالمؤسسات الملكية النامية، كما أخذت امتيازاتهم الاقطاعية تتبخر إزاء تقدم الجهاز البيروقراطي الملكي. وكانت الامكانية الوحيدة لاعاقة نمو السلطة الملكية تتوقف على حدوث أزمة حول وراثة العرش مما قد يتيح للبارونات الانجليز أن يلعبوا بمرشح ضد آخر، وكان من أسباب خيبة أمل هنري أن صار هذا الاحتمال واردا بالفعل بعد موت ابنه الوحيد. وكانت ابنته ماتيلدا هي وريثه الشرعي الوحيد الباقي، وكانت قد تزوجت مرة من الامبراطور الألماني هنري الخامس، وكانت آنذاك زوجة لكونت أنجو Anjou. ولم يكن ثمة مبدأ في القانون الانجليزي يحرم المرأة من تولي العرش. ولكن ماتيلدا كانت حمقاء متعالية بحيث جلبت على نفسها عداء الجميع، كما أن النبلاء، على أية حال، كانوا قد عقدوا العزم على انتهاز هذه الفرصة النادرة لكي يوقفوا المد المتزايد للسلطة الملكية. وبعد موت هنري الأول أعاد كثيرون من البارونات الطموحين إحياء المبدأ الانتخابي الجرماني، ونفضوا عنه غبار الاهمال، ليقفوا بجانب ابن اخت هنري (أحد أبناء بنت وليم الفاتح)، وهو المغامر المستهتر ستيفن بلوا Stephen of Blois الذي ظهر في انجلترا مطالبا بالعرش. وقد عرفت السنوات العشرون التي دارت أثناءها رحى حرب أهلية مدمرة باسم «عصر الفوضى anarchy». بيد أن هذه الفترة لم تكن كذلك بكل تأكيد، لأن الأداة المركزية السياسية، والقانونية، والمالية للحكومة الملكية لم تختف بأي حال، على الرغم من الضعف الذي اعتراها بسبب

اختفاء قوة الدفع. ومع غروب شمس أربعينيات القرن الثانى عشر، كان صغار النبلاء فى انجلترا، ممن عرفوا باسم طبقة الفرسان، قد سئموا استمرار الصراع الذى لم يكن يخدم سوى مصالح عائلات كبار البارونات، بل أن كثيرين من أولئك السادة الاقطاعيين اللامعين باتوا يتوقون إلى السلام والأمن الذى تحققه العدالة الملكية. وتم التوصل إلى اتفاق وسط تولى العرش بمقتضاه هنرى الثانى، ابن ماتيلدا، أول ملوك أسرة أنجو، ومات ستيفن بلوا سنة ١١٥٤.

وكان على هنرى الثانى والاداريين العاملين معه أن يكدوا ويكدحوا لاستعادة الأراضى التى خسروها أبان العشرين سنة السابقة. ولكن الملك أفاد من الدروس المكتسبة أبان الحرب الأهلية نفسها فى عمله من أجل إعادة بناء المؤسسات الملكية التى كانت قائمة فى عهد جده، ثم لتطوير سلطة البيروقراطية كانت طبقة ملاك الأراضى قد ذاقت طعم الفوضى الاقطاعية السائدة فى أوربا. ولكنهم فى سنة ١١٤٥ كانوا قد اقتنعوا تماما بالفوائد والمكاسب التى حققها وليم الفاتح وأبناؤه لانجلترا، وكانوا مستعدين للامتثال لعملية تطوير الدولة الأنجلو - نورمانية.

الفصل الرابع عشر

الحملة الصليبية الأولى وما بعدها

١ - أصول المثال الصليبي:

فى المفهوم الشعبى ترتبط حضارة العصور الوسطى ارتباطا فعليا بالحروب الصليبية. فالحادث الوحيد الذى يعرفه الخريج العادى من الجامعات الأمريكية من بين حوادث القرن الحادى عشر هو بالضرورة الحملة الصليبية الأولى التى حدثت سنة ١٠٩٥، والتى لا بد أن يتصورها فى صورة فرسان عمالقة يرتدون بزات عسكرية براقة، ويمتطون جيادا فارهة، يتبعون شارة الصليب ليحرزوا النصر على أبناء القبائل العربية ذوى البشرة الداكنة والعزائم الخائرة. وليس هناك جانب واحد صحيح تماما فى هذه الصورة. ذلك أن متوسط قامة الفارس فى أواخر القرن الحادى عشر لم تكن تتعدى خمسة أقدام وثلاث بوصات، بسبب سوء التغذية فى الصغر، وبسبب سوء التغذية والعلاج بشكل عام. وكان فرسان الحملة الصليبية الأولى، فى غالبيتهم، يرتدون قمصان الزرد وليس البزات المصفحة التى لم ينتشر استخدامها سوى فى الشطر الأخير من القرن الثانى عشر. أما خيولهم، فكانت هزيلة جدا بالمقاييس الحديثة، بل وحتى بمقاييس القرن الثالث عشر؛ إذ أن التهجين المتزايد بسلالات الخيول العربية الأرقى هو الذى حسّن نسل الخيول الأوربية فى القرنين التاليين. لقد تبع فرسان الحملة الأولى شارة الصليب حقا؛ ولكن ذلك لم يكن لأغراض دينية بحتة. وأخيرا، فإن العرب كانوا يماثلون فرسان الغرب شجاعة ومهارة فى القتال، وكان الضعف الداخلى الذى اعترى العالم الإسلامى، وليس عدم الكفاية الشخصية للمحاربين العرب، سبب نجاح الحملة الصليبية الأولى.

ووجه الخطأ فى المفهوم التاريخى الشعبى عن الحملة الصليبية الأولى لا يتمثل فى هذه الأغلاط التفصيلية، بقدر ما يتمثل فى الميل إلى المبالغة فى أهمية المثال الصليبى فى الحياة فى العصور الوسطى. بل إن الكثيرين من المؤرخين المحترفين ممن تخصصوا فى العصور الوسطى، ولا سيما فى الولايات المتحدة، يميلون إلى النظر للحروب

الصليبية باعتبارها العامل الأساسى فى التغير التاريخى منذ القرن الحادى عشر حتى القرن الثالث عشر، كما أنهم شغوفون بالكتابة بحماسة تنقصها الدقة تجعل القارىء غير الفطن يخلط بين الحروب الصليبية وحضارة العصور الوسطى ذاتها. ومثل هذه الآراء ليست سوى هجو فارغ. فالحروب الصليبية فصل هام فى تطور العصور الوسطى، ولكن السبب فى ذلك يرجع أساسا إلى كونها تعبيرًا عن نماذج أساسية من الفكر والسلوك. وكان لها بالفعل تأثير بسيط على مجرى التطور الأوربى، ولكن هذا التأثير لم يكن كافيا لتغيير اتجاه تطور الحكومة والاقتصاد والثقافة على أية حال. فالحروب الصليبية فى جوهرها توضيح درامى له مغزاه الهام للجوانب الرئيسية فى حضارة العصور الوسطى؛ إذ أنها عامل سببى محدود للغاية فى التغير التاريخى الذى حدث فى تلك الفترة. وعامة، يمكن القول بأن الحروب الصليبية تكشف عن الناس فى العصور الوسطى فى أفضل أحوالهم وأسوئها فى آن واحد؛ فهذه الحروب مسرح كبير تجلت فوقه خصائصهم وخصالهم بشكل غير عادى؛ وهذا فقط هو السبب الذى من أجله تستحق الحروب الصليبية أن ندرسها.

لقد قام مؤرخ العصور الوسطى الألمانى الكبير كارل اردمان Carl Erdmann بتحليل ذكى لأصول المثال الصليبى فى ثلاثينيات القرن العشرين، وقد لقى كتابه المثير للجدل - ربما لأنه يضع الحروب الصليبية داخل المنظور العام لثقافة العصور الوسطى - تجاهلا كبيرا من المهتمين بدراسة الحروب الصليبية فى الجامعات الأمريكية. ومن الضرورى أن نبحث عن أصول فكرة الحروب الصليبية فى طيات الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا، وأن نتأمل كيف خرجت الفكرة اللاتينية عن الحرب المقدسة من هذه الخلفية. فحين فتح المسلمون شبه جزيرة أيبيريا فى القرن الثامن، لاذت مجموعة صغيرة من الفرسان المسيحيين وأتباعهم بالجبال الشمالية، ومن هذه الجبال بدأوا حرب الاسترداد reconquista فى القرن العاشر. وفى القرن الحادى عشر أحرز أولئك المسيحيون الأسبان أولى انتصاراتهم بفضل التشرذم السياسى الذى عانى منه المسلمون الأسبان، وما أن أهلت سنة ١١٠٠ حتى كانوا يسيطرون على مساحة تتراوح بين ربع وخمس المساحة الكلية للبلاد. وقد زحف مد حركة الاسترداد ببطء عنيد صوب الجنوب، ومع أن طرد المسلمين نهائيا لم يتم سوى فى سنة ١٤٩٢ م، فإن الشطر الأكبر من شبه الجزيرة كان قد خضع لحكم الملوك المسيحيين منذ منتصف القرن الثالث عشر. لقد كانت حركة الاسترداد هى النغمة الدالة فى تاريخ أسبانيا المسيحية. وفى رأى بعض المؤرخين أنها كانت عامل الحسم فى تكوين الشخصية الأسبانية المتميزة. إذ أن

المجتمع الأيبيرى ككل قد نمت أصوله فى ساحة حرب طاحنة ضد الاسلام على مدى خمسة قرون من الزمان، كما أن بنية المؤسسات الأسبانية قد نظمت على أساس الالتفاف حول قائد الحرب وضرورات الحرب الهجومية. وربما يكون الأسبان المسيحيون قد قلدوا، وربما بطريقة غير واعية، مبدأ الجهاد الاسلامى بعقيدته القائلة إن أفضل نهاية للإنسان أن يموت مجاهدا فى سبيل الله. وقد صار التعصب الدينى والبسالة الحربية هى الخصال التى تلقى ترحيب المجتمع الأسبانى وتقديره أكثر من غيرها، وقد قيل إن هذا هو المفتاح الذى يحل أحاجى التاريخ الأسبانى وألغازه. إذ أن الطبقة المسيحية الحاكمة لم تتعلم شيئا على الاطلاق سوى القتال، وبينما أدت الطاقة العدوانية والمهارة العسكرية إلى قيام الامبراطوريات الأيبيرية الكبرى فيما وراء البحار، ظلت أسبانيا تفتقر إلى الخبرة السياسية والاقتصادية، وإلى مؤسسات الفن والسلام، مما حرمها من أن تفيد من هذه الانتصارات الأولية على المدى الطويل.

وأخذت البابوية الجريجورية تراقب الموقف فى حرب الاسترداد عن كثب بواسطة القصاد الرسوليين. ولعدة أسباب، فكرية واستراتيجية، وجدت أن هذه الحركة جديرة بالتقليد على المستوى العام. فقد كانت صلاحية الحرب المقدسة وإراقة الدماء فى سبيل الرب محل أخذ ورد. ذلك أن المسيحية زمن الحواريين أظهرت اتجاهات سلمية قوية، ولكن سان أوغسطين برر استخدام القوة لصالح الكنيسة. وقد رأينا كيف كانت نظرة هيلدبراند تعبيرا قويا عن هذه الاتجاهات الأوغسطينية الجديدة. وقد أكد اردمان على أن النزعة العسكرية القوية لمسيحية القرن الحادى عشر، والتى تجلت واضحة فى موقف زعماء البابوية الاصلاحية، جعلت من الحرب ضد الاسلام اقتراحا جذابا. هذه هى العوامل الفكرية التى ألهمت جريجورى السابع أن يقترح شن حملة ضد الشرق، تقودها البابوية ضد المسلمين. وعلى أية حال، كانت هناك عوامل أخرى كامنة. فإن مثل هذه الحملة ستكون تعبيرا عن سمو زعامة البابا الأدبية على العالم الغربى (وكان هذا واحدا من مذاهب جريجورى الرئيسية)، كما أنها سوف تشد شعوب الشمال إلى علاقات أكثر توطدا مع البابوية فى روما. وأخيرًا فإن الغزو اللاتينى للشرق يمكن أن يكون خطوة كبيرة على طريق تأكيد الهيمنة البابوية فى الأراضى البيزنطية. فقد كان البلاط البابوى مهتما باستمرار الشقاق الذى وقع سنة ١٠٥٤، وكان يرى أن الحملة الصليبية يمكن أن تكون أداة فعالة فى تأكيد ما زعمته البابوية طويلا من سموها

على الكنيسة البيزنطية[١].

كان الموقف فى الشرق الأوسط فى سبعينيات القرن الحادى عشر يمثل فرصة ممتازة لهذا التدخل اللاتينى. إذ كانت الدولة البيزنطية قد خارت قواها من جراء نمو السيادة الاقطاعية، وبرهنت على عجزها عن الصمود أمام جيوش الأتراك السلاجقة المسلمين، الذين كانوا آخر موجات الغزاة الآسيويين الذين توغلوا فى عالم البحر المتوسط ذى المعاناة الطويلة. إذ كان الأتراك قد استعادوا انطاكية من المسيحيين كما ألحقوا هزيمة ساحقة بالبيزنطيين فى معركة مانزكرت سنة ١٠٧١. وكانوا آنذاك قد توغلوا فى آسيا الصغرى وخشى الامبراطور اليكسيوس كومنينوس Alexius Comnenus الذى كان يتميز بذكاء خارق وقدر من التردد، من الخطر الذى بات يتهدد القسطنطينية نفسها، ويمكن قياس مدى الخوف والوجل الذى اعترى الامبراطور البيزنطى من خلال الحقيقة القائلة بأنه لجأ إلى البابا، عدوه التقليدى، يطلب منه المساعدة العسكرية. ولو كان جريجورى قد استطاع أن يقهر هنرى الرابع، فلا شك فى أنه كان سيحاول أن يجعل من استغاثة اليكسيوس ميزة عاجلة تفيد منها البابوية حين تجرد جيشا هدفه خدمة القضية اللاتينية وليس لخدمة البيزنطيين. ولكن استمرار الصراع حول النزاع العلمانى حال دون تنظيم أية حملة صليبية أثناء بابوية جريجورى السابع. وقد ترك هذا الأمر لكى يقوم به إربان

(١) الواقع أن هناك جدلا شديدا بين المؤرخين حول امكانية أن يكون جريجورى السابع هو الذى وضع الأصول الأولى للحروب الصليبية، حقيقة أنه كان قد اقترح تكوين حملة تحت زعامة البابوية تكون وجهتها القسطنطينية التى واجهت الخطر الاسلامى بعد معركة مانزكرت والهزيمة الساحقة للجيوش البيزنطية على أيدى الأتراك السلاجقة، وحقيقة أيضا أن جريجورى السابع قد طلب من هنرى الرابع، قبل اندلاع الصراع بينهما أن يرعى البابوية فى غيبته فى الشرق وقد رأى نفسه فى سرحة من سرحات الخيال قائدًا لجيش مسيحى يدخل القسطنطينية ليخلصها من الخطر الاسلامى ويوحدها تحت سيادة البابوية، ولكن الحملة الصليبية كما جرت أيام أربان الثانى لم تكن تخطر بباله. ولم يكن تغيير الهدف الجغرافى من القسطنطينية إلى بيت المقدس هو وجه الاختلاف الوحيد، وإنما شكل الحملة وهدفها النهائى أيضا معا جعل بعض المؤرخين يرون أن أربان الثانى هو الذى بدأ الحروب الصليبية وليس جريجورى السابع. ونحن نميل إلى أن نأخذ برأى هذا الفريق خاصة وأن مصطلح الحملة الصليبية ومثالها لم يعرف فى الغرب سوى بعد أن اكتملت أحداث الحملة الأولى وحققت انجازاتها المذهلة. كذلك فأن المشتركين فى الحملات الصليبية لم يطلق عليهم لقب «صليبى» سوى فى أخريات القرن ١٢ وأوائل القرن ١٣، وكان لقب المشارك فى أية حملة صليبية حتى ذلك الحين هو «الحاج». (المترجم)

الثانى، الذى كان أكثر اعتدالا من جريجورى السابع، ولكنه لم يكن أقل منه طموحا.

كان إربان يرى أن الحملة الصليبية يمكن أن تحقق أربعة أهداف فضلا عن هدفها الواضح الظاهر، أى استعادة الأرض المقدسة من المسلمين. أول هذه الأهداف هو أن هذه الحملة ستؤدى إلى إعادة توحيد العالم المسيحى بعد المنازعات المريرة التى سببت انقسامه حول الإصلاح الجريجورى، وثانيها أنها ستزيد من هيبة البابوية فى وقت كان فيه أنصار الامبراطور الألمانى موجودين حتى فى روما نفسها. وثالث هذه الأهداف أن هذه الحملة ستعمل على إنهاء الشقاق بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية. وكان إربان قد حاول أن يُخضِع الكنيسة البيزنطية فى جنوب إيطاليا لسيطرة البابوية، إلا أن خطته تحطمت على صخرة نزاع لاهوتى حول العلاقة بين الاله الابن والروح القدس (وهو النزاع الذى عرف باسم النزاع الفيليوكى filioque controversy) كذلك كان يمكن للحملة الصليبية أن تدخل فى لب المسألة بأن تجعل الامبراطور البيزنطى يعتمد على، أو حتى يخضع، لجيش لاتينى. أما القيمة الرابعة التى رآها إربان الثانى فى الحملة الصليبية، فقد نبعت من كونه فرنسيا. إذ كان يعرف تماما أن الألمان لن ينضموا إلى مشروعه، وأن الحاكم الأنجلو - نورمانى القوى لن يميل إلى المشاركة. وكان لا بد أن تكون الجيوش الاقطاعية الفرنسية بمثابة العمود الفقرى للجيش الصليبى، بغض النظر عن قوات النورمان الايطاليين. وأدرك أربان أن الحملة صوب الشرق ستكون مواتية لحاجات الكثيرين من السادة الاقطاعيين والفرسان الفرنسيين، كما أنها فى الوقت سوف تسخر طاقاتهم فى خدمة الكنيسة. فما أن غربت شمس القرن الحادى عشر حتى كانت حدود الدوقيات والكونتيات الفرنسية قد صارت حدودا ثابتة، ونشأ نوع من التوازن البدائى فيما بينها. ومن ثم لم تكن هناك فرصة لدى كبار الأمراء الاقطاعيين الفرنسيين للغزو داخل أرض الوطن، وهو الأمر الذى أقلق الكثيرين منهم وجعلهم يتحرقون شوقا للمغامرة فى الخارج. وفضلا عن ذلك، فإن ارتفاع معدل الزيادة السكانية كان يعنى ازدياد عدد الفرسان الذين لا يملكون أرضا فى فرنسا والمستعدين لأن يدلوا بدلوهم فى حملة تتيح لهم الحصول على الضياع والممتلكات فى الشرق الأوسط، كذلك كان إربان الثانى يعلم تماما العلم أن موجة التدين السائد بين العلمانيين قد أثرت فى النبلاء الفرنسيين. وكان إخلاصهم الظاهرى، على الأقل، للدين المسيحى مؤشرا على أن فكرة الحرب المقدسة سوف تروق لهم.

وقد خطط البابا لاعلان الحملة الصليبية بعناية شديدة. فقد دعا إلى عقد مجمع

كنسى فى كليرمون بوسط فرنسا سنة ١٠٩٥، وحض الأساقفة ومقدمى الأديرة الفرنسيين على أن يحضروا معهم السادة الاقطاعيين البارزين فى مناطقهم. وقبل أن يصل إلى كليرمون كان يعلم بالفعل أن هناك واحدا على الأقل من كبار الأمراء الفرنسيين، هو ريمون السانجيلى Raymond of St. Giles كونت تولوز، سوف يأخذ شارة الصليب. وبما أن أربان بدأ دعوته العاطفية إلى «جنس الفرنجة» طالبا منهم الانضمام إلى الحملة الصليبية فإنه كان يتوقع منهم استجابة طيبة حقا: وكانت خطبته مثالا رائعا على الخطب البليغة المؤثرة فى التاريخ الأوربى. فقد لمس أوتار كل دافع كان يمكن أن يكون موجودا لدى أى من الفرسان الفرنسيين؛ سواء كان هذا الدافع دينيا أو غير ذلك، يدفعه إلى أخذ شارة الصليب. وأسهب إربان فى ذكر ما يعانيه المسيحيون فى الأرض المقدسة على أيدى الأتراك السلاجقة، وذكر الخطر الجسيم المحدق ببيزنطة من جراء الزحف الاسلامى. وذكّر الفرسان الفرنسيين بما اشتهروا به من شجاعة وتقوى؛ داعيًا إياهم إلى إنقاذ الضريح المقدس من أيدى المسلمين. كما طرح أمام مستمعيه إمكانية إقامة ممالك فى فلسطين «**الأرض التى تفيض باللبن والعسل**». ووعد ببسط الحماية البابوية على أملاك وعائلة كل من يشارك فى الحملة الصليبية. وأخيرًا، فإنه باعتباره من يحفظ مفاتيح ملكوت السماء وعد من يشاركون فى الحملة بغفران خطاياهم.

هذا الحافز الأخير يقترب من التأكيد القرآنى بأن الجنة من نصيب المقاتل الذى يستشهد فى سبيل الله، وقد أسىء استخدام الغفران الصليبى فى القرون التالية بدرجة كبيرة بحيث كانت صيغته النهائية عرضة للهجوم الذى شنه مارتن لوثر فى القرن السادس عشر، كما تعرضت أيضا للهجوم من جانب مجمع ترنت Trent. وفى القرن الثانى عشر طورت الكنيسة نظام الغفران لمن ينيب عنه شخصا فى الحملة الصليبية أى عن طريق إعانة الصليبيين بالمساعدة المالية. وبحلول القرن الرابع عشر كانت البابوية تسمح ببيع صكوك الغفران حتى بدون هذه الذريعة الصليبية، على النحو الذى أجاد شوسر Chaucer تصويره فى «حكايات كانتربورى Cantor-bury Tales»[٢]. ولكن فكرة إربان الأصلية عن الغفران الصليبى لم يكن بها شىء

(٢) جيوفرى شوسر Geoffrey Chaucer شاعر أنجليزى كان أبنا لأحد تجار الخمور فى لندن ثم خدم كوصيف فى بلاط ادوارد الثالث، وتبعه فى حملاته ضد فرنسا. وقد أسر سنة ١٢٥٩ فدفع الملك فديته وحرره. وبعد عودته إلى انجلترا استأنف الخدمة فى بلاط أدوارد فى مهام متعددة من بينها المهام الدبلوماسية. وفى عهد ريتشارد الثانى استمر فى خدمة البلاط الملكى خلال =

من سوء المقصد. فقد كان الغفران فى رأيه شكلا إعفائيا من التكفير عن الذنوب، وكان يعتمد فى صلاحيته على التوبة الحقة. وعلى أية حال، فإنه ترك هذه الجوانب اللاهوتية عن الغفران الصليبى غامضة إلى حد ما، ومن المحتمل أن كثيرين من الفرسان الفرنسيين انساقوا إلى الاعتقاد بأن أخذ شارة الصليب فى حد ذاته يضمن لهم المكافأة السماوية. ومع أن الدوافع التى تشكلها المصالح الذاتية لعبت دورًا هامًا للغاية فى بدء الحركة الصليبية - والواقع أن إربان قد شجع هذا الاتجاه فى خطبته - فالحقيقة أن كثيرين قد أخذوا شارة الصليب لأسباب دينيه. إذ أخبرنا شهود العيان أنه عندما انتهى اربان من خطبته فى مجمع كليرمون ردد المجتمعون صيحة هائلة تقول Deus vult «الرب يريدها»، وتقدم العديد من السادة الإقطاعيين والفرسان لأخذ شارة الصليب. ومُزقت العبارات الحمراء إلى شرائط خيطت على شكل صلبان فوق صديريات الفرسان.

هذا المشهد العاطفى تكرر فى شتى أنحاء فرنسا وجنوب ايطاليا استجابة لرسالة إربان التى تولى نشرها المندوبون البابويون، أو القصاد الرسوليون. والواقع أنه يبدو أن إربان لم يكن يتوقع لخطبته فى كليرمون أن تؤتى مثل هذه النتيجة. ذلك أنه لم يكن على استعداد لأن يقوم بتنظيم سريع لجماعات الفرسان المختلفة التى أخذت تصخب آنذاك بالاستعداد للانطلاق صوب الأرض المقدسة. ولم تبدأ الحملة الصليبية الأولى سوى فى العام التالى. ومن المؤكد أن أحدًا فى البلاط البابوى لم يكن يتوقع هذا التأثير المدوى للدعوة التى وجهها إربان فى كليرمون. وقبل أن يتمكن الفرسان الفرنسيون من الإنطلاق فى حملتهم، انطلقت «حملة شعبية» تألفت من الغوغاء الجامحين فى أحياء مدن الراين القذرة بصورة عشوائية صوب الأرض المقدسة. وتحت قيادة المبشرين الشعبيين من طراز «بطرس الناسك» ارتكبوا مذابح

=المناصب الصغيرة التى تولاها. وأهم مؤلفاته «حكايات كانتربورى» الذى كتبه ما بين سنة ١٣٨٦ وسنة ١٣٩٠، وهو المؤلف الذى جعل له هذه الشهرة المدوية. والحكايات التى يرويها عن الحياة الإنجليزية فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر، والتى تدور حول رحلة إلى مزار سان توماس بيكيت فى كانتربورى، حيث تتوافد مختلف أنماط الطبقات الاجتماعية لزيارة القديس وحيث يتبادل الجميع القصص والروايات - هذه الحكايات تعتبر تمثيلا حقيقيا للواقع التاريخى آنذاك لأن «حكايات كانتربورى» فى مجملها تعبير عن الروح العلمانية التى سادت فى ذلك الحين، كما أنها تعتبر نقدا يتناول تصرفات الاكليروس ويعبر عن نظرة العلمانيين اليهم. انظر.

H. S. Benett, Chaucer and 15th Century England (1947).

(المترجم)

شنعاء ضد جماهير اليهود الأغنياء فى مدنهم، ثم تحركوا عبر ألمانيا والبلقان مثل أسراب الجراد حتى وصلوا إلى بوابات القسطنطينية، وسرعان ما نقلهم الامبراطور البيزنطى الخائف عبر الدردنيل حيث قضى عليهم الأتراك السلاجقة. كان رد الفعل الشعبى هذا واحدا من أهم جوانب الحملة الصليبية الأولى، لأنه كشف بجلاء عن النظرة الألفية المتعلقة بسفر الرؤيا والتى كانت الطبقات الوسطى والدنيا فى مدن أوربا ترى الأمور بها. كانت البابوية قد واجهت هذه المشاعر الألفية فعلا فى ميلانو؛ حيث عبر التمرد الاجتماعى عن نفسه من خلال التدين العاطفى. لقد كانت دعوة إربان تعنى شيئا لمن شاركوا فى الحملة الصليبية الشعبية لم يكن البابا نفسه يفهمه. فقد كانوا يتوقون إلى التحرر من ربقة الإحباط والفقر اللذين خيما على حياتهم التعسة، واكتشفوا فى عبارات البابا نغمات أخروية خلاصية كانت فى الواقع أبعد ما تكون عن نظرة البابا الدنيوية. إن الحملة الشعبية لمحة غير عادية تسلط الضوء على الأشكال المغرقة فى العاطفية والثورية التى اتخذتها حركة التدين الجديدة فى مناطق المدن التى انبعثت منها حركات الهرطقة الشعبية فى أخريات القرن الثانى عشر، كما تجلى من خلالها عجز البابوية عن مواجهة هذا التدين الجماهيرى. بل إن المؤرخ الإنجليزى اللامع نورمان كوهن Norman Cohn قد توصل إلى مغزى أكثر شمولا فى «أثر الألف سنة» الذى ألهم الحملة الشعبية؛ فهو يعتبر أنها المرة الأولى فى التاريخ الأوربى التى يتجلى فيها هذا التعصب الشعبى للطبقات الدنيا، وهو التعصب الذى يرى أنه عبر عن نفسه تعبيرًا ناضجًا فى الفاشية الحديثة. هذا التفسير له بعض المبررات، ولكننا قد نرى أيضا فى أتباع بطرس الناسك النماذج الأولى لدعاة إعادة التعميد Anabaptists، والداعين إلى إلغاء الفوارق الطبقية Levellers وغيرهم من الديموقراطيين الدينيين الذين ظهروا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر.

على أية حال، فإن البابوية أشاحت بوجهها عن الزلزال الاجتماعى الذى أحدثته الحملة الشعبية دونما مبالاة، وعكفت على تنظيم الأمراء والفرسان الإقطاعيين الفرنسيين فى جيش صليبى. وتكشف الدوافع المختلفة لدى زعماء الحملة الصليبية الأولى عن الاتجاه العقلانى المتزايد بين النبلاء الأوربيين؛ وهى العقلانية التى تميز مواقفهم عن تلك النظرة الطائشة المتهورة التى كانت تحكم أبناء هذه الطبقة فى القرن العاشر. فقد كان التدين الحقيقى دافعًا لغالبيتهم، ولكنهم كانوا يتحركون صوب الأرض المقدسة لأسباب ودوافع أخرى أيضا. فالبعض مثل ريمون كونت تولوز، وجودفرى دوق اللورين، كان يؤرقهم عدم وجود فرصة لإظهار البسالة

والمغامرة فى الوطن. والبعض الآخر مثل روبير كورتوز Robert Curthose دوق نورماندى والأبن الأكبر لوليم الفاتح، كانوا يريدون استعادة الهيبة التى فقدوها فى وطنهم بإحراز نصر كبير فى الشرق. وقد انضم ستيفن بلوا إلى الحملة لأن زوجته، الأبنة الطموح لوليم الفاتح، قد حملته على الإنضمام. أما النورمان فى إيطاليا فكانوا مدفوعين بكراهيتهم المتأصلة للإمبراطورية البيزنطية، وبرغبة أكيدة فى أن ينتزعوا لأنفسهم بعض الممتلكات فى الشرق على حساب الامبراطور. ذلك أنهم كانوا يرون فى الحملة الصليبية تجريدة ضد الامبراطورية البيزنطية أكثر من كونها حربًا ضد الإسلام. فقد كان بوهمند، أبرز زعمائهم، قد قاد حملة فاشلة لغزو الامبراطورية، ثم جرب مغامرة فاشلة أخرى بتشجيع من البابوية سنة ١١٠٦. أما المدن الايطالية التجارية فى الشمال، والبندقية على نحو خاص، فكانت متحمسة للحملة الصليبية، ولكن لأسباب غير دينية. فقد كانت هذه المدن التجارية ترى أن الحملة الصليبية خطوة أخرى على طريق توغلها فى عالم البحر المتوسط لمنافسة التجار المسلمين على نحو أكثر فعالية. وقد نال البنادقة مكافأتهم على قيامهم بنقل الإمدادات للصليبيين بمجرد وصولهم إلى سوريا وفلسطين.

وعلى الرغم من أن أحدًا من الملوك الأوربيين لم ينضم إلى الحملة الصليبية الأولى؛ فقد كان زعماء هذه الحملة فى غالبيتهم أمراء يتميزون بالقدرة والبسالة. وتمثلت نقطة ضعفهم الكبرى فى عدم اتفاقهم على قائد واحد، وكان السبب فى ذلك أنهم كانوا جميعا أبناء شريحة اجتماعية واحدة. وأخيرا، عين البابا أسقفًا فرنسيًا ليكون قائدا إسميا للحملة، ولكن الحملة الصليبية تميزت من بدايتها إلى نهايتها بالشجار بين الأمراء وبين أفصالهم. وهناك عيب آخر يمكن اغتفاره تمثل فى جهل زعماء الحملة الفادح بالمعالم الجغرافية والمناخ، والنظم السياسية فى البلاد الاسلامية، ولكن الصليبيين تأقلموا مع بيئتهم الجديدة بسرعة لافتة للنظر. وقد زودهم اليكسيوس كومنينوس ببعض المعلومات القيمة، كما أمدهم البنادقة بالمزيد من هذه المعلومات.

وأخيرا، انطلق الصليبيون فى سنة ١٠٩٦ على الطريق البرى عبر المانيا والبلقان إلى بيزنطة، التى كانت نقطة الوثوب على العالم الاسلامى. كانت الحملة الشعبية قد عبرت هذا الطريق من قبل، وتصرف الفرنج – وهو الاسم الذى أطلقه العرب والبيزنطيون على الصليبين جميعا – بطريقة مماثلة. إذ أنهم ارتكبوا المذابح ضد اليهود فى مدن الراين، كما أساءوا إلى شعوب البلقان وسرقوها أثناء عبورهم

لهذه المناطق. وقد رحب بهم اليكسيوس كومنينوس ترحيبًا حذرا وتوجس منهم شرًّا. لقد سره أن يتلقى مددًا لاتينيا، ولكن المؤكد أن هذا لم يكن هو نوع المساعدة التى كان يتصورها، كما كان يخشى أن يتطلع الصليبيون إلى انتزاع ما تبقى من الامبراطورية البيزنطية، قدر أهتمامهم بمهاجمة المسلمين، لا سيما حينما رأى بوهيموند، عدوه القديم، بين الصليبيين. ونقلهم عبر المضيق إلى آسيا الصغرى بأقصى سرعة ممكنة. ولم يكن رد فعل الفرنج تجاه القسطنطينية ليختلف كثيرًا عن موقف لويد براند، قبل خمسين من هذا التاريخ، من كريمونا Cremona. فحين ألفى زعماء الحملة الصليبية أنفسهم وجها لوجه مع ثروة بيزنطة وقوتها العسكرية أدركوا مدى ضآلة فرصتهم فى الاستيلاء على المدينة الذهبية القائمة على ضفاف البسفور. وكان عليهم أن يقنعوا بتكوين إمارات اقطاعية فى بلاد الشام وفلسطين، وبذلك ينالون من الامبراطور حين يقيمون إمارات لاتينية فوق الأرض التى تنادى القسطنطينية بملكيتها، وحين يبنون معقلا للكنيسة الرومانية فى شرق المتوسط.

فى مواجهة عظمة بيزنطة وحضارتها انتاب الفرنج شعور بالنقص كبير فلجأوا إلى تعويض بداوتهم وغلظتهم بالقول بإن البيزنطيين مخنثون فاسدون. والواقع أن أعضاء البلاط البيزنطى المهذبين كانوا على حق فى النظر إلى الفرنج باعتبارهم أجلافا غير متحضرين. كان هناك قدر من الصحة فى النقد الذى وجهه كل طرف للطرف الآخر، ولكن الفرنج كانوا يمثلون حضارة فتية تتدفق حيوية، على حين كانت بيزنطة عاقرا تعانى من الذبول والتدهور، كما كان على بيزنطة أن تعتمد على أعدائها الغربيين للخلاص من عدوها الجاثم على أنفاسها. هذه المواجهة الأخاذة بين البلاط الامبراطورى البيزنطى، قلعة الحذلقة، وبين الاقطاعيين الفرنسيين الأجلاف الواعدين كانت ذات مغزى كبير، لأنها كانت رمزا للمواجهة بين يوم يميل إلى الغروب ويوم يبزغ نور فجره.

لقد حالت سذاجة زعماء الحملة الأولى بينهم وبين إدراك مدى عظمة المهمة التى أخذوا على عاتقهم القيام بها. فلم تكن قوة الجيش الصليبى كلها تزيد عن خمسة آلاف فارس، وربما أقل، ولم يكن العالم الإسلامى فى حالة اتحاده ليجد صعوبة تذكر فى القضاء على الغزاة. ولكن توغل الأتراك السلاجقة فى شرق المتوسط قلب النظام السياسى السائد رأسا على عقب، وتسبب فى منازعات داخلية مريرة بين الأمراء العرب. وقد أبدى الصليبيون شجاعة لا تبارى، وأظهروا مهارة عسكرية فائقة، وفى لحظة حرجة، وحين كانت قلوبهم تخفق من الخوف والوجل، دفعهم

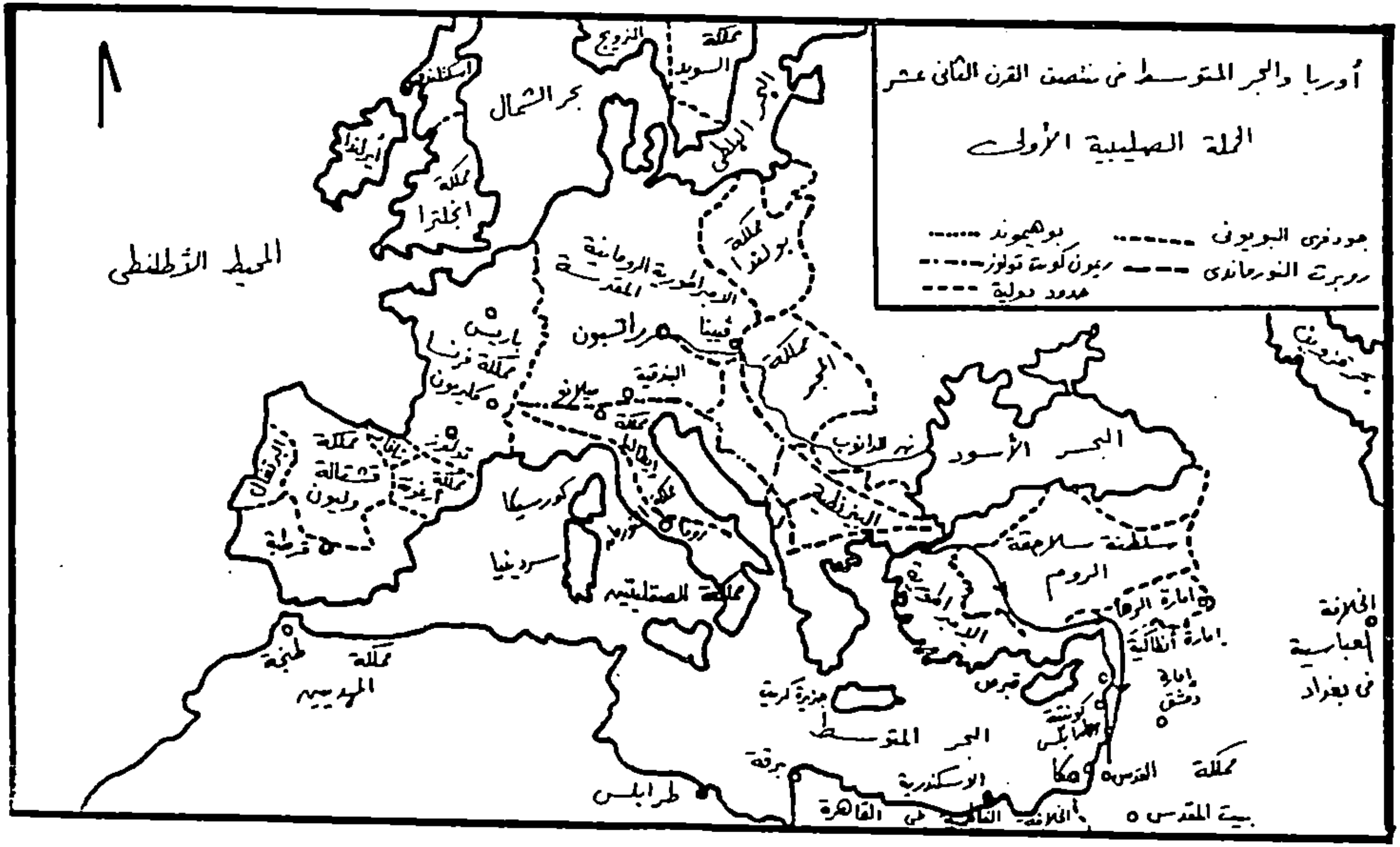
أوربا والبحر المتوسط في منتصف القرن الثاني عشر
الحملة الصليبية الأولى
جودفرى البويونى
بوهيموند
روبرت النورماندى
ريمون كونت تولوز
حدود دولية
المحيط الأطلنطى
بحر الشمال
أيرلندا
مملكة انجلترا
اسكتلندا
النرويج
مملكة السويد
البحر البلطى
الامبراطورية الرومانية المقدسة
مملكة بولندا
باريس
مملكة فرنسا
كليرمون
راتسبون
فينا
مملكة المجر
البندقية
ميلانو
مملكة ايطاليا
روما
البرتغال
مملكة قشتالة وليون
قرطبة
مملكة أرغونة
كورسيكا
سردينيا
مملكة الصقليتين
طنجة
مملكة الموحدين
نهر الدانوب
البحر الأسود
البيزنطية
سلطنة سلاجقة الروم
الرها
امارة الرها
امارة أنطاكية
امارة دمشق
قبرص
جزيرة كريت
البحر المتوسط
طرابلس
عكا
مملكة القدس
بيت المقدس
الاسكندرية
برقة
الخلافة الفاطمية في القاهرة
الخلافة العباسية في بغداد

اكتشاف ما أشيع أنه بعض الذخائر المقدسة الهامة إلى مواصلة الغزو[٣]. ولكن الحقيقة تبقى أن تفرق المسلمين المؤقت وعجزهم عن إقامة جبهة موحدة هو الذى لعب دورًا هائلا فى النصر الذى أحرزه الصليبيون، فقد ساروا عبر آسيا الصغرى إلى بلاد الشام واستولوا على أنطاكية بعد حصار طويل. واغتصب بوهيموند لنفسه حكم المدينة، وجعل نفسه أميرا على أنطاكية فى زمن قصير؛ كما كان هناك زعيم آخر من زعماء الصليبيين يناضل ليقيم لنفسه إمارة إقطاعية فى الشرق الأوسط. ولكن الآخرين واصلوا السير، واستولوا على القدس بعد صراع مرير وقضوا على المدنيين من المسلمين واليهود فى مذبحة بشعة.

لقد كان نجاح الحملة الصليبية هو النتيجة الختامية للتوغل فى عالم البحر المتوسط الذى بدأته مدن الشمال الايطالى منذ القرن العاشر، وهو التوغل الذى تصاعدت حركته بسبب غزو النورمان لجنوب ايطاليا. لقد كان ذلك نتيجة، ولم يكن سببا، لتغيرات أخرى هامة جرت على الحضارة الغربية. وبينما لا يثور الشك فى أن الحملة الصليبية الأولى قد زادت من ادراك الأوربيين لثروات الشرق الأوسط، وزادت من إقبال أوروبا على التوابل وغيرها من المنتجات الشرقية، فمن المؤكد أيضا أنها لم تتسبب فى إقامة العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب لأن هذا التطور كان قد تم بالفعل على نطاق واسع فى القرن السابق. كما أن الحملة

---

(٣) هذه اشارة إلى الحوادث التى جرت فى انطاكية بعد احتلال الصليبين لها ثم وصول قوات الجيش الأسلامى الكبير لتحاصرهم بقيادة كربوقا داخل المدينة حتى ساءت أحوالهم، وجاعوا بالدرجة التى جعلتهم يأكلون حشائش الأرض ونباتاتها البرية، ويذبحون دوابهم ليأكلوها. وبدا أن الصليبيين المحاصرين فى أنطاكية فى حاجة إلى معجزة تفتح أمامهم سبيل النجاة. وقد حدثت المعجزة حين خرج أحد القساوسة البروفنساليين المغمورين بحكاية عن رؤيا مقدسة شاهدها فى منامه تخبره بأن الحربة التى اخترقت جسد المسيح منذ أحد عشر قرنا مخبوءة داخل انطاكية فى مكان حدده هو للصليبيين، وتم الحصول على الحربة بسهولة لأن القس أدعى أن الرؤيا حددت موقعها بالضبط. هذه الحيلة (على حد تعبير ابن الأثير) جعلت الروح المعنوية للجيش الصليبى ترتفع بفعل الآية السماوية الملفقة. وفى الوقت نفسه كانت روح التشرذم السياسى فى العالم الاسلامى قد كشفت عن وجهها القبيح فى تفكك جيش قربوقا، وعدم اتفاق فصائله المختلفة على خطة واحدة لضرب الصليبيين الذين لم يلبثوا أن خرجوا فى هجوم ساحق استمر يومًا كاملا ضد قوات الحصار الاسلامية. وانتهى الأمر بتفرق جيش قربوغا وانتصار الصليبيين. وقد كشفت الصراعات التى دارت بين زعماء الصليبيين بعد ذلك عن مدى الافلاس الايديولوجى للحركة الصليبية. (المترجم)

الصليبية الأولى لم تلعب دورًا فى إقامة العلاقات الفكرية والثقافية بين العالم الاسلامى والعالم اللاتينى، وهى العلاقات التى تسببت فى الثورة التى شهدتها الفلسفة والعلوم الغربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر. إذ لم تتم أية ترجمة لاتينية لكتابات المفكرين الإغريق والمفكرين العرب فى الأمارات الصليبية؛ لأن هذه الأمارات لم تسهم بشىء فى مجال التعليم الغربى. وإنما تمت هذه الترجمات فى مناطق التفاعل اللاتينى - العربى القديمة فى أسبانيا وصقلية. لقد كان الأثر الباقى الوحيد لقيام كيان لاتينى فى الشرق الأوسط هو تعليم الشعوب الأوربية التسامح تجاه من ينتمون إلى ثقافة أو ديانة أخرى. ذلك أن الفرسان اللاتين الذين عاشوا فى الدول الصليبية اكتشفوا أن جيرانهم المسلمين كانوا، على الأقل، يتمتعون بذكاء واخلاقيات تماثل ذكاءهم وأخلاقياتهم[٤]، وهو اكتشاف كان من المحتم أن يهدم التعصب والكراهية تجاه الشعوب التى لم يعرفوا عنها سوى أن أبناءها كفار متوحشون. وسرعان ما تعود سادة الدويلات الصليبية على طعام وملابس جيرانهم من أمراء المسلمين، كما أخذوا عنهم بعض القيم الاخلاقية. وعلى أية حال، فإن هذه المواقف المتسامحة الواقعية تجاه المسلمين لم تكن قد تغلغلت فى وجدان الغرب الأوربى حتى النصف الثانى من القرن الثالث عشر.

٢ - تقلبات الحركة الصليبية وتدهورها:

لقد أدت الحملة الصليبية الأولى فى سنة ١٠٩٦ إلى قيام مملكة بيت المقدس اللاتينية، وهى إمارة صغيرة قامت على أرض فلسطين ومركزها بيت المقدس وعكا،

---

(٤) يبدو من صياغة هذه الجملة أن المؤلف يجسد النظرة الاستعلائية الأوربية تجاه الشعوب الأخرى على الرغم من إدانته لظاهرة للتعصب الأوربى فى العصور الوسطى. فالواقع أن هذه الصياغة توحى بأن الصليبيين كانوا على نفس مستوى المسلمين الحضارى، وهو أمر ينافى الحقيقة التاريخية تمامًا. ومن يقرأ كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، أو يقرأ التعليقات التى أوردها المؤرخون المسلمون المعاصرون على تصرفات الصليبيين يعرف أن الصورة التى ترسمها المصادر التاريخية العربية للصليبى، صورة إنسان ذى مستوى حضارى أدنى كثيرًا وهذه الصورة تجد لنفسها التأييد من بين طيات المؤرخات التى كتبها المؤرخون الأوربيون المعاصرون للحروب الصليبية، خصوصًا جيمس الفيترى، كما أن واقع الحال فى المجتمع الأوربى نفسه وفى المجتمع الصليبى كما اثبتتها الدراسات الحديثة تؤكد هذا. وعلى هذا فإننا لا نرى ضرورة لإسقاط النظرة الأوربية والغربية الحالية، بما فيها من استعلاء وغطرسة، على نظرة الصليبيين الذين كانوا يعرفون حقًا أنهم أقل فى الحضارة والذكاء والأخلاقيات من أعدائهم المسلمين. (المترجم)

وتم تنظيمها على أسس اقطاعية. وكان أول حكامها هو جودفرى اللورينى على الرغم من أنه لم يتخذ لنفسه لقب ملك، ثم خلفه أخوه بلدوين Baldwin الذى سمح له رجال الدين وغيرهم من الصليبيين باستخدام اللقب الملكى. ومنذ بداية وجود المملكة اللاتينية كانت تتهددها مخاطر الاسترداد الإسلامى، وعلى مدى القرنين التاليين عانت هذه المملكة من حرب انهاك بطيئة ولكنها كانت قاضية. وبين الحين والحين كانت البابوية وكبار رجال الكنيسة يحضون الحكام الأوربيين على القيام بحملات لمساعدة المملكة اللاتينية، ولكن أيا من هذه الحملات لم تحقق نجاحًا كبيرًا، بل أن بعض هذه الحملات انتهت نهاية مفجعة. والواقع أن رأس الجسر الغربى فى شرق المتوسط، أى المملكة اللاتينية، حققت أكبر اتساع لها مع بداية تاريخها. ومع بزوغ شمس القرن الثالث عشر، كانت هذه المملكة قد تقلصت تحت وطأة الهجمات المضادة التى شنها الحاكم المصرى صلاح الدين بحيث انحصرت فى شريط ضيق من الأراضى. وقد استولى المسلمون على مدينة القدس نفسها، وفى سنة ١٢٩١ م تم القضاء على المملكة اللاتينية. والتاريخ الكئيب للحملات الصليبية التى تلت الحملة الأولى، والتى وقعت خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر، يطرح السؤال الهام عن السبب فى أن أوربا الغربية أبدت عجزًا واضحًا عن الحفاظ على مملكة بيت المقدس اللاتينية.

كانت المسألة مسألة عدم اهتمام أكثر منها نقصًا فى المقدرة. ولا شك فى أنه لو كرست كافة موارد البابوية والملكيات الأوربية فى أى وقت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للحركة الصليبية، لأمكن دحر الجيوش الإسلامية المحيطة بالمملكة اللاتينية(٥). وعلى أية حال تبقى حقيقة أن قادة المجتمع الغربى كانت لديهم

---

(٥) يسرف كانتور كثيرًا فى استخدام «لو» فى علاجه للقضايا التاريخية، ولما كان التاريخ، كعلم، يهتم ببحث الواقع التاريخى كما حدث بالفعل، ولا يناقش فروضًا فلسفية أو احتمالات غير واقعة بالفعل، فإننا لا نستطيع مسايرة المؤلف فى هذا الموقف الفكرى. وعلى أية حال فإنه حين يعرض لأسباب الفشل الصليبى فى السطور القادمة يتحدث عن موقف الغرب الأوربى فقط، ناسيًا، أو متناسيًا، أن الحروب الصليبية كانت بين طرفين، وأن الطرف الآخر، أى العالم العربى الأسلامى قد نجح فى القضاء على الكيان الصليبى نتيجة لنجاحه فى خلق الجبهة الإسلامية الواحدة منذ زنكى حتى صلاح الدين، وانتهاء بالظاهر بيبرس والأشرف خليل بن قلاون الذى قضى على آخر الصليبيين فى عكا. حقيقة أن الفشل الصليبى يمكن تفسيره فى ضوء انشغال الظهير الأوربى باهتماماته الداخلية عن مساندة الصليبيين. ولكن النجاح الإسلامى أيضًا يمكن تفسيره على ضوء الوحدة وتركيز القوى الإسلامية فى الصراع ضد الصليبيين. (المؤلف)

اهتمامات أخرى أكثر الحاحًا، ومهما كانت آراؤهم العلنية بشأن الحروب الصليبية، فإنها كانت بالنسبة لهم حركة هامشية إلى حد ما. لقد أخذ كثيرون من الملوك وكبار الاقطاعيين فى غرب أوربا شارة الصليب خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر، ولكن نسبة ضئيلة منهم فقط هم الذين رحلوا فعلاً إلى الأرض المقدسة، وغالبًا ما كانت البابوية تغض النظر عن هذه الردة، لأنها كانت تضع من يقسم بأخذ شارة الصليب فى موقف المدين روحيًا للبابوية، مما كان يتيح للبابا أن يكلفه بأى شكل آخر من أشكال الخدمات للكنيسة ثمنًا لإعفائه من القسم الصليبى. وحتى عندما كان أحد كبار الملوك يذهب فعلاً فى حملة صليبية، فإنه غالبًا ما كان يذهب فى شكل تظاهرى لقتال المسلمين، فيأخذ معه جزءًا صغيرًا من جيشه، ثم يمكث عدة شهور قليلة فقط فى الأرض المقدسة، ولا يشتبك مع المسلمين سوى فى مناوشات سطحية، وأخيرًا يعقد مع أحد السلاطين معاهدة من ذلك النوع الذى يحفظ ماء الوجه، حتى يبدو فى صورة بطل المسيحية عندما يعود إلى وطنه. ومن الأمور المتناقضة أن الزعماء الصليبيين الذين أخذوا مهمتهم مأخذ الجد فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كانوا هم أسوأ الجنود، ولم يحققوا شيئًا سوى ذبح فرسانهم على أيدى العرب. لقد كان المثال الصليبى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر متنفسًا شعبيًا لحركة التدين التى انتشرت انتشارًا واسعًا آنذاك، ولكنه كان مجرد شكل واحد بين أشكال متعددة لهذا التدين. كما كان أخذ شارة الصليب واجبًا ضروريًا بالنسبة للملوك وأمراء الغرب الأوربى تحض عليه البابوية وكبار رجال الكنيسة. فقد كان هذا شيئًا يجب عليهم القيام به تعبيرًا عن مكانتهم فى المجتمع وارضاء للرأى العام؛ ولكنهم جميعًا كانوا يأخذونه كمسألة شكلية لا تكلفهم سوى النزر اليسير من طاقاتهم ومواردهم.

لقد دعا سان برنار الكليرفوى St. Bernard of Clairvaux الذى كان الزعيم الأدبى للكنيسة فى القرن الثانى عشر، إلى الحملة الصليبية الثانية سنة ١١٤٤ م، استجابة للاستغاثات الملحة الصادرة عن المملكة اللاتينية فى بيت المقدس طلبًا للمساعدة ضد القوة العربية الناهضة. ونجح سان برنار فى استقطاب اثنين من رؤوس أوربا المتوجة هما لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا. وقد أضفى هذا على الحملة الثانية هيبة أكثر من الحملة الأولى ولكنه لم يزدها فى القوة العسكرية، لأن كلا من لويس وكونراد لم يكونا من المتميزين فى الكفاءة القتالية، كما أن جيشيهما لم يكونا كبيرين. ولم يصل أى منهما إلى فلسطين قط، فقد تمزقت قواتهما إربًا فى ربوع آسيا الصغرى. لقد كانت النتيجة الوحيدة هى توتر العلاقة

الزوجية بين لويس وزوجته اليانور الاكوتيانية Eleanor of Aquitaine التى صحبته فى الحملة، والتى اتهمها لويس بخيانته مع أحد قادة جيشه. وكان طلاق الملك الكابى من دوقة اكوتيانيا ثم زواجها بعد ذلك من هنرى الثانى ملك إنجلترا ذا أثر هام على مجرى التطور السياسى فى أوربا القرن الثانى عشر.

هذا المزج بين المأساة والملهاة، الذى كان من سمات الحملة الصليبية الثانية، تكرر فى الحملة الصليبية الثالثة سنة ١١٩٠، وهى الحملة التى كانت أكثر الحملات اللاتينية على الأرض المقدسة طموحًا، على الأقل من حيث بدايتها. إذ كان لابد من تحدى قوة صلاح الدين بجيش صليبى يضم الشطر الأكبر من القوة العسكرية فى أوربا، نظريًا على الأقل. فقد انطلق أكبر ثلاثة ملوك فى غرب أوربا آنذاك، ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا، وفردريك بربروسا ملك ألمانيا صوب الأرض المقدسة على رأس جيوشهم القوية. وغرق بربروسا فى الطريق، وانتهى الأمر بالألمان بالتفرق والمشاركة الرمزية فقط. وسرعان ما ظهر أن فيليب أوغسطس المستخف الساخر لم يكن يقصد سوى المظاهرة العسكرية؛ فإنه كان تواقًا إلى العودة إلى وطنه لمواصلة دسائسه ومؤامراته ضد ملك إنجلترا. أما ريتشارد قلب الأسد فقد أخذ الحملة بجدية شديدة. وقد اشتهر ببنيته العملاقة وقوته الجسدية، إذ كان طوله ستة أقدام، وكان شغوفًا بإظهار قوته وبسالته الفردية التى كانت عظيمة دون شك، ولكن مهارته كقائد كانت مسألة مختلفة تمامًا. فقد كان ريتشارد طفلًا باكر النمو فاسدًا، وعادى كل حكام أوربا تقريبًا فى الوقت الذى توجه فيه إلى الأرض المقدسة. وهناك نجح فى إذكاء نار العداوة فى صدر الملك الفرنسي ضده، كما جلب على نفسه كراهية الألمان. وسرعان ما تفككت الحملة، وبعد أن أرضى الملك الإنجليزى غروره فى معارك قليلة، قبل صلاح الدين الداهية عقد معاهدة سلام أبقت الوضع على ما هو عليه. ثم اكتشف ريتشارد أن لا سبيل أمامه للعودة إلى الوطن، لأن جميع الطرق كان يسدها الأعداء. واختار اكثر الطرق التفافًا، عبر ألمانيا، وقبض عليه وأودع السجن رهن فدية طلبها هنرى السادس. هذه الحوادث الدرامية بالغت فى قيمة ريتشارد كفارس، بيد أنها كشفت عن تضاؤل الاهتمام بالحركة الصليبية. فقد كان الملوك الأوربيون مشغولين برعاية مصالحهم الأسرية والأقليمية بحيث لم يقدموا للحركة الصليبية ما هو أكثر من الدعم الهامشى.

أما الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤م، فلا شك فى أنها كانت أكثر الحملات

نجاحًا بعد الحملة الأولى، ولكنها نجحت ضد بيزنطة لا ضد العالم الإسلامى. ولم يكن البابا إنوسنت الثالث الذى دعا إلى هذه الحملة يقصد فى الأصل أن تتخذ هذا الشكل[٦]. ولكن البنادقة الذين قدموا الأسطول للجيوش الصليبية، أصروا على هذا التغيير فى الخطط، وبما أنهم كانوا يقدمون القروض للصليبيين فقد أجبروهم على الامتثال لمطالبهم. وعلى الفور وافق إنوسنت الثالث على هذا التغيير فى الخطط ورأى فيه وسيلة لتأكيد السيطرة البابوية على القسطنطينية. ذلك أن الاتجاهات المعادية للبيزنطيين فى الحركة الصليبية، والتى كانت قد اتضحت منذ بدايتها فى القرن الحادى عشر آتت ثمارها فى الحملة الصليبية الرابعة. كانت القسطنطينية قد صمدت فى مواجهة الجيوش الإسلامية على مدى خمسة قرون، ولكنها هذه المرة سقطت أمام البنادقة والفرنسيين الذين نهبوا المدينة، وأهانوا رجال الكنيسة البيزنطية، وأقاموا المملكة اللاتينية فى القسطنطينية بمباركة البابوية. وعلى مدى ستين سنة ظل الأمراء اللاتين يحكمون فى القسطنطينية، واستغلت البابوية هذه الفرصة لمحاولة إخضاع المسيحيين البيزنطيين لسيطرة الكنيسة الكاثوليكية فى روما. وأخيرًا نجح أمير بيزنطى سنة ١٢٦١ فى استعادة العرش الامبراطورى، وحدث الانشقاق الذى لم يلتئم حتى الآن بين الكنيسة اليونانية والكنيسة اللاتينية. ولم تفق القوة الإمبراطورية أبدًا من الكارثة التى سببتها الحملة الصليبية الرابعة، ومع أن القسطنطينية لم تسقط فى أيدى المسلمين سوى سنة ١٤٥٣، فإنها لم تلعب فى عالم البحر المتوسط منذ ذلك الحين فصاعدًا سوى دور ضئيل.

لقد كشفت الحملة الصليبية الرابعة للبابوية عن إمكانية استغلال الحركة الصليبية لتحقيق أغراض أخرى غير انقاذ مملكة بيت المقدس. وفى القرن الثالث عشر كانت الحملات الصليبية توجه ضد أعداء البابوية فى أوربا بمعدل يفوق معدل

(٦) كان الهدف المباشر للحملة الصليبية الرابعة هو مصر. وفى سنة ١٢٠١ توجهت مختلف الفرق الصليبية إلى البندقية، بات واضحًا أن تكاليف الحملة تفوق طاقة الصليبيين، وقد عرض عليهم البنادقة تسهيلات كبيرة مقابل الاستيلاء على مدينة زارا Zara المجرية، التى كانت شوكة فى حلق البندقية ملكة البحر الأدرياتى.

وفعلًا استولى الصليبيون على زارا التى كانت مدينة مسيحية فى مملكة مسيحية ثم تلى ذلك قرار مصيرى آخر، فقد وجد الصليبيون فرصة للتدخل فى شئون بيزنطة بسبب النزاع الداخلى حول العرش الامبراطورى. وفى سنة ١٢٠٤م عصف الصليبيون بالقسطنطينية، وصار بلدوين أمير الفلاندرز أول امبراطور لاتينى لها، كما صار أحد البنادقة أول بطريرك لاتينى لها. وتم تقسيم الامبراطورية البيزنطية مثل سائر الأسلاب والغنائم بين المنتصرين. (المترجم)

توجيهها ضد المسلمين. ولم يواصل النمط القديم من المغامرة الصليبية سوى ملك قديس .هو لويس التاسع ملك فرنسا الذى قاد حملتين، والامبراطور الألمانى فردريك الثانى هوهنشتاوفن Frederick II Hohenstaufen ولم تنجح أى من هذه الحملات الصليبية الثلاث فى مساعدة مملكة بيت المقدس اللاتينية المتدهورة. إذ شن لويس هجومًا جسورًا على المسلمين فى معاقلهم، مرة فى مصر ومرة فى تونس، ولكنه هزم هزيمة شنعاء فى المرتين. أما حملة فردريك الثانى فكانت استعراضًا رمزيًا تدخل فيه عناصر هزلية، لأن الامبراطور كان واقعًا تحت عقوبة الحرمان البابوى حين قام بحملته الصليبية. وبقدر ما لعبت الحركة الصليبية دورًا هامًا فى الحياة الأوربية فى القرن الثالث عشر، فإنها اتخذت شكلاً جديدًا مقلوبًا وتحولت إلى حروب ضد أعداء البابوية. والمثال الأول على ذلك هو الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين الهراطقة فى جنوب فرنسا، وهى الحملة التى دعا إليها أنوسنت الثالث، وقد لقيت هذه الحملة قبولاً عامًا فى غرب أوربا على الرغم من أن الطريقة التى تم بها تبرير غزو النبلاء لجنوب فرنسا كانت طريقة ذميمة. ولكن كلما مضت البابوية قدمًا فى استغلال الحركة الصليبية كلما أدينت كقوة روحية تتناقض مع مثلها الأصلية تناقضًا صارخًا. وفى أربعينيات القرن الثالث عشر أدين فردريك الثانى بالهرطقة، وأسبغ الوضع القانونى للحملة الصليبية على الجيش الفرنسى الذى استولى على أملاكه فى جنوب إيطاليا. وفى ثمانينيات القرن الثالث عشر صارت الحملة الصليبية مؤسسة سياسية خالصة. فقد منحت الشارة الصليبية لفيليب الثالث ملك فرنسا لقاء هجومه على ملك أرغونة، الذى لا يمكن أن يكون هرطقيًا مهما شطح بنا الخيال، ولكن غزوه لصقلية أقض مضاجع البابوية. هذا الاستغلال السياسى البحت للحملات الصليبية جاء فى نفس الوقت الذى كانت فيه مملكة بيت المقدس اللاتينية تحتاج إلى التعزيزات من أوربا لإنقاذها من الهلاك.

والحقيقة أن الزعماء الأوربيين فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر لم يكونوا متحمسين لشن حروب جديدة ضد الإسلام، وكان هذا راجعا فى جانب منه إلى موقف أكثر تسامحا وإستنارة. ذلك أن هؤلاء الزعماء توصلوا، مثل مستوطنى مملكة بين المقدس، إلى أن العرب قوم أذكياء قادرون. وبحلول سنة ١٢٠٠ كان الإهتمام موجها إلى تحويل الشعوب الشرقية إلى المسيحية بدلا من شن الحرب ضدها. وكان للرهبان الفرنسسكان قصب السبق فى هذا المجال التبشيرى. فقد كان اهتمامهم موجها بشكل خاص نحو محاولة تنصير المغول، آخر الجحافل الآسيوية التى هددت شرق المتوسط. وكان الفرنسسكان، تؤازرهم البابوية، يأملون فى تحويل المغول عن

الإسلام وإعتناقهم المسيحية اللاتينية مما يؤدى إلى إنهاء السيطرة الإسلامية على الأماكن المقدسة. ولكن الشعوب الأوربية لم تكرس جزءا كبيرًا من نشاطها لهذا التوجه السلمى. ويكشف إرسال اثنين من الرهبان الفرنسسكان إلى بلاط خان المغول أن هذا المشروع كان يحظى باهتمام كبير بين الأوربيين. ولابد أن الشعوب الأوربية كانت تولى إهتماما كبيرا بتنصير المغول، ولكن تبقى حقيقة أن الطبقات الحاكمة فى أوربا، والبابا من بينهم، كانت غير راغبة فى كبت الشئون المحلية الحاكمة بشكل يجعلها تكرس قدرا أكبر من إهتمامها لتنصير الشعوب الشرقية(٧). أن لقاء الشرق والغرب نموذج جدير بالإهتمام، ولكنه لم يكن ذلك النموذج الذى يروق فى عيون الناس فى العصور الوسطى العالية. ذلك أن مشكلات الحكم، والاقتصاد، والثقافة الأوربية إمتصت طاقاتهم، والقليل الذى تبقى منها لمؤازرة الحروب الصليبية فى القرن الثالث عشر وجهته البابوية ضد أعدائها فى داخل القارة الأوربية.

لقد كانت الحروب الصليبية ميراثا ورثه القرنان الثانى عشر والثالث عشر عن موجة الحماسة والتعصب الناجمة عن الإصلاح الجريجورى. وكان مقدرا لها أن تخرج عن هدفها، وأن تتعرض لتقلبات كثيرة، وأن تضمحل فى النهاية بسبب التغيرات العميقة التى جرت على الحضارة الأوربية نفسها.

ومع هذا، فإن المثال الصليبى الذى كان شيئا يختلف عن الحملات الصليبية التى

---

(٧) كثيرا ما يقع كانتور فى شباك وهم أن الأوربيين فى العصور الوسطى كانوا يملكون زمام المبادرة وأن حدوث الظاهرة التاريخية التى يكونون طرفا فيها فى مقابل طرف آخر يتوقف عليهم هم دون الطرف الآخر ويتضح هذا من عرضه لمحاولات التبشير بالمسيحية بين المغول الذين كانوا قد إعتنقوا الإسلام فى أواخر القرن الثالث عشر، ويذكر أن سبب فشل المحاولات التبشيرية راجع إلى إنشغال أوربا بمشكلاتها الداخلية فقط. وهذه مسألة يكررها كثيرا خصوصا فيما يتعلق بالمواجهة بين العالم الإسلامى وأوربا العصور الوسطى. وهو هنا يتجاهل حقيقة أن الدين الإسلامى دين قوى والتبشير بين المسلمين بدين آخر أمر مستحيل، بل ينسى ما ذكره هو نفسه فى الفصل الخامس من هذا الكتاب من أن الإسلام «... هو الوحيد بين ديانات البشر الكبرى الذى يصلح لأن يكون دينا للعالمين، فما يقدمه القرآن سهل وبسيط، ولا يستعصى على الفهم...». فإذا كان هذا هو الإسلام الذى إعتنقه المغول، فكيف يمكن أن نفسر فشل التبشير الكاثوليكى فى ضوء إنشغال الأوربيين الداخلى فقط؟! ان خطورة هذا المنطق أنه يجعل أوربا مركزا للفعل وذاتا فاعلة يحول العالم المعاصر لها آنذاك إلى مناطق سلبية، وموضوعا للفعل لا يصدر عنه مجرد رد الفعل، وهذا فى تصورنا ظلم شديد للحقيقة التاريخية. (المترجم)

كانت مغامـرات عسكريـة وسياسيـة. كان ذا تـأثير عميق، وأن لم يكن طيبـا، على الحياة فى العصور الوسطى. فقد أضفت الحروب الصليبية مسحة أخلاقية ودينية على الاتحـاد بين القـوة العسكريـة والإخلاص الـدينى. لقـد كـانت الحمـلات الصليبيـة الخارجية، تلك المغامرات الطائشة ضد الإسلام فى شرق المتوسط، ضئيلة الأهميـة فى الحياة السياسية والاجتماعية فى الغرب. أمـا الحملات الـداخلية، التى جـرت داخل أوربا الغربية، فكانت آثارها المباشرة أقوى كثيرا. ولكن أخـطر ما خلفتـه الحروب الصليبية هو ذلـك الدرس الـذى وعاه الأوربيـون – أن القتل والتـدمير فى سبيـل القيم المسيحية حق. لقد كانت المعاناة المباشرة الناجمة عن هذا الإعتقاد فى القرنـين الثانى عشر والثالث عشر من نصيب اليهود والهراطقة. أما الـذى عانى عـلى المدى الطويل فكـان هو المجتمع الأوربى بأسـره. لأن الدول البيـروقراطيـة الجديـدة فى القرن الثالث عشر إعتنقت المذهب الذى جعل من استخدام القوة العسكرية أمـرا مشروعا، بحيث صار هذا المذهب هو المركز الذى تقوم حـوله ذات السلطة المـطلقة والنزعة الوطنية فى القرون الستة التالية. هذا الإيمان بحق القتل والتدمير فى خدمـة المثل العليا لم يتضاءل فى القرن العشرين.